الباب الخامس

صور عن :

نقود وردود

عزيزى القارىء :

فى هذا الباب سوف أعرض عليك صوراً من النقد الذى وُجّه إلى شعب بنى مصعب ، سواء أكان ذلك النقد موجهاً إلى خلقه ، أو إلى سلوكه العام، أو إلى نظامه الاجتماعى . أو إلى آثار إباضيه الجزائر فى التاريخ . فمن ذلك النقد ما وجه عن سوء نية وجهل ، ومنه ما وجه عن حسن نية وسوء فهم ، ومنه ما لم يقصد به النقد ولكنه جاء فى صورة النقد العنيف، ومنه ما تهمس به الشفاه وتلوكه الألسنة فى الخلوات، ومنه إحساسات تثور فى صدور شباب بنى مصعب أنفسهم لمعارضة بعض أنظمتهم الاجتماعية ، ولكنهم لا يجرأون على البوح بها لرسوخ فائدتها فى نظر المجتمع . ولقد حاولت أن ألتقط مشاهد مختلفة لتلك النقود مع الإشارة الخفيفة إلى سوء القصد أو سوء الفهم أو سوء التعبير عند الناقدين ، وإلى الغرض من التنظيم ، والحكمة فى التشديد والمقصد من السلوك ، والسبب فى وجود الحالة فى كل تلك المشاهد عند من خططوا ونظموا وسلكوا . وجمعت كل ذلك فى هذه الفصول .

وفى حسبانى أن الصورة الكاملة لتاريخ هذا الشعب لا تتم إلا بهذه

الفصول، وذلك أن التواريخ الأخرى لشعوب العالم إنما تعتمد — أساساً — على أداة الحكم. ملك يسقط وملك يتولى، وجمهورية تمحى وجمهورية تقوم، وجيش ينهزم وجيش ينتصر. وقائد يخيب وقائد ينجح.

أما تاريخ هذا الشعب — فى اثنى عشر قرناً من حياته الحافلة — فهو مجرد من حاكم ومحكوم، ومنتصر ومهزوم، وجيش وقيادة. ومع ذلك فقد استطاع أن يحتفظ بحريته — ولو كانت غير كاملة — أمام جيوش الأعصار الاستعمارى الغربى الذى اكتسح كل دول المنطقة وحطم جيوشها، وسلب حرية شعوبها، وتصرف حتى فى أوقاف مساجدها. وبلغ به التسلط — وهو الكافر بالإسلام — إلى أن يُعيِّن الأئمة والمؤذنين.

ومن المؤسف أن الدارسين لعلم الاجتماع الحقيقى — الذين لم تلوِّثهم السياسة — لم تقع أنظارهم على هذا المجتمع المثالى المعزول فى الصحراء. لأن أقلام المستشرقين المغرضين والمستعمرين الحاقدين، وكتبة المتعصبين، قد شوهوا الصورة الجميلة للحقيقة بإطار من الكذب والبهتان والتضليل، وغيّموها بألوان غامقة من التصوير والتحليل والتعليل.

أخى القارىء: لا تتم لك الصورة التى أردت أن أعرضها عليك فى هذا الكتاب إلا إذا ضممت هذا المشهد بكامل صوره وألوانه وزواياه إلى المشاهد السابقة.

لا يا أخى[1]

يقول الأستاذ محمد على دبوز فى كتابه القيم (نهضة الجزائر الحديثة) الجزء الأول صفحة ٢٥٤ ما يلى :

« وخلا ميزاب من العلماء الأجلاء الذين ينشرون العلم ويصلحون المجتمع . إن ميزاب فى أول القرن الثانى عشر الهجرى يغط فى نومه ، ويسوده الجهل وما يتولد عنه من عصبيات قبائلية وحزبية ، فرّقت صفوفه ، وأغرقته فى الفتن والدماء ، وجعلت القوى فيه يأكل الضعيف ، وانعدم فيه ذلك المجتمع الذى تسوده الأخوة الإسلامية ، وانحرف فى ناحية الإخاء وشدة التمسك بالدين عن الطريق الذى أقره فيه أسلافه ومنشئوه .

وكانت البدع التى ينكرها الدين والخرافات التى تأباها الثقافة والاستسلام للأهواء الذى يحرمه الإسلام قد انتشر فى ميزاب فتعكر جوه الصافى الذى كان . والمجتمع الذى كوّنه فيه أسلافه . وقد بلغ جهل ميزاب بالدين ، واسترساله مع الأهواء ومع ما يدعو إليه طبعه الموروث إلى أن كان يعطى للزوجة نصف الميراث لا الربع أو الثمن كما شرع الدين . إن هذا يدل على احترام ميزاب للمرأة ، لقد استجاب لما دعته إليه وراثته البربرية التى تدعو إلى إكبار المرأة وتقديرها ، وجعله جهله بالدين يستجيب لطبعه ويجعل إلفه له ديناً ، وما وجد آباءه عليه من بدع هو الحق الذى يجب التمسك به ويناضل عنه ، ويرمح بالأرجل كل من يحاول اقتلاعها ومناهضتها » .

---

(١) اقرأ فى آخر الفصل رأى أستاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم فى هذا الموضوع .

ويقول فى صفحة ٢٦٠ من نفس الكتاب ما يلى :

« جاءته ـ أى أبا زكرياء الأفضلى ـ امرأة تسأله عن ميراثها من زوجها . وكانوا فى الجاهلية قبل أبى زكرياء يعطونها النصف، فأخبرها بأنه الربع أو الثمن . فثارت فى وجهه وقالت: هذه بدعة فى الدين .. هذه شريعة خضراء فأجابها أبو زكرياء : شريعتنا الخضراء خير من جهلكم الأسود » .

هذه بعض الصور ، من صور متناثرة فى الكتاب استوقفتنى كثيراً . وكنت متردداً بين أن أسجل ما أحسه نحوها من غربة عن تاريخ الشعب الميزابى ، ونبوّ عن سلوكه وأخلاقه . أو أن أترك ذلك للقارىء الكريم يعرفه المطلع ، ويستنتجه الذكى ، ويخطىء فيه العادى . وكنت فى هذا الموقف يتنازعنى عاملان : عامل الوفاء لهذا الشعب الكريم . وعامل الوفاء للصديق الوفى والزميل القديم . وقد غلبنى العامل الأول لاعتقادى أن زميلى وصديقى محمد على يسره منى هذا الموقف . وهو يبذل جهوده العظيمة المتواصلة لاستخراج الصورة الحقيقية لشعبه الكريم نظيفة من كل تشويه ولو كان ذلك التشويه مما يتناثر من قلم الأستاذ دبوز .

يبدو لى لو أن متهجماً حقوداً أراد أن يتهجم على وادى ميزاب بما يسىء إليه فى أعز ما يعتز به ، لما تهجم عليه بأكثر من هذا . ولو أن خصما عنيداً له ، حاول تحطيم ذلك البناء الشامخ الذى أقامه الميزابيون فى واديهم الأمين منذ أن انبثق نور الإسلام فى قلوبهم إلى اليوم ، والذى صارع جميع الأعاصير ، فمضت دون أن تنال منه ، ودون أن ينحنى لها ـ لما ضربه بأشد من هذا المعوّل ، ولما كان لمعوله أثر أسوأ من هذا الأثر ، ولا صورة أبشع من هذه الصورة التى رسمها له الأستاذ دبوز .. وأنا على شبه يقين لو

أن هذا الكلام صـــدر من شخص آخر لا نبرى له الأستاذ الدبوز يرد ويصحح ويوضح .

ولا شك أن الأستاذ الدبوز إنما صور ميزاب بهذه الصورة القاتمة فى الفترة التى سبقت أبا زكرياء الأفضلى ليوضح للقارىء الكريم مقدار الكفاح العظيم ، والجهد المتواصل الذى بذله أبو زكرياء . ولا شك أن أحداً ممن له إلمام بتاريخ الحركة العلمية عند بنى مصعب لا ينكر فضل أبى زكرياء . ولكن من الخطأ أن نعتقد أن أى مصلح يرتفع بقدر ما ينحط الشعب الذى يعمل من أجله .

لقد جاء أبو زكرياء فى فترة الركود العلمى لا فى ميزاب خاصة ، ولكن فى العالم الإسلامى عامة . ولقد يكون ميزاب فى ذلك الحين خيراً من غيره بكثير ، ويكفى أن عصر أبى زكرياء كان مسبوقاً بعدد من العلماء الأعلام مثل العلامة سعيد بن على الجربى ، وأبى مهدى عيسى بن إسماعيل ، وأبى يعقوب يوسف المصعبى وزملائهم وتلاميذهم . وإن عصر تعاقب فيه هؤلاء الأعلام الثلاثة فى وطن ضيق كميزاب لا يمكن أن يكون عصراً ساد فيه الجهل وتغلبت فيه البدعة .

ومهما كان .. فإن الإشادة بالكفاح العظيم الذى قام به أبو زكرياء لا يحمل على المغالاة فى تحطيم أمة معتزة بإسلامها ومحافظتها عليه منذ انشرح صدرها للإيمان ، فاستجابت لدعوة الله ، واستقبلت قبلة الإسلام . ولست أدرى كيف ساغ للأستاذ الدبوز — عند الأستاذ الدبوز — أن يقول فى أمته المسلمة الكريمة :

«وكانوا فى الجاهلية قبل أبى زكرياء» إنها كلمة أبعد من أن تجد مكانها

فى تاريخ هذه الأمة الكريمة . ولو كُتب لأبى زكرياء أن يعود إلى الحياة وفى نفس الظروف التى كان عليها لما رضيها فى وصف أمته، بل لما رضى أن يصف بها خصومه فى الإصلاح ، ولسنا نرضاها نحن ، وأحسب أن جميع الميزابيين ـ ومنهم محمد على ـ ومن يعرف الميزابيين على حقيقتهم فى الماضى والحاضر لا يرضى أن يطلق هذا الحكم الجائر على تلك الأمة الكريمة .

لو وصفت بها عادة من ادات الميزابيين، أو بدعة مما قد يكون، أو جماعة معينة محدودة لاحتملناها على مضض. أما هكذا على الإطلاق فلا يا أخى ... وألف لا . . .

إن كلمة الجاهلية لا يسوغ أن تطلق على مجتمع يؤمن بالله ، ويقوم بواجباته الدينية فى حرص وتشدد، ويحافظ فى عمومه على شعائر الله، فلا يترك فرضاً ولا ينتهك حداً .

ولا يستطيع الأستاذ الدبوز ـ ولا غير الأستاذ الدبوز ـ أن يزعم بحق أن الشعب الميزابى ـ فى تاريخه الإسلامى الطويل أو فى أى فترة من فترات ذلك التاريخ ـ كان قد انحرف عن سبيل الله وأعرض عن دينه فتخلى عن الواجبات وانتهك أو استباح المحرمات، أو أن ذلك كان يقع فيه وهو راض ساكت لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر .

كيف يجيز إنسان لنفسه أن يصف مجتمعاً ـ يحرص على أداء الفرائض حتى يبالغ فى الحرص . ويقاطع كل من يتهاون بفريضة أو سنة . وينأى عن جميع المعاصى ويقاطع كل من يرتكب معصية ، ويقوم بالأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر . ويدين بالولاية والبراءة الشخصيتين . فيحرص على محبة الناس فى الله ومعاداتهم فى الله بأنه كان فى جاهلية .

لا شك أن هذا المجتمع قد تكون له عادات سيئة وقد تكون بينه بدع تخالف السنة وقد يكون فيه أفراد ينتهكون حرمات الله . ويرتكبون الموبقات. وهذا شىء طبيعى لابد أن يكون فى مجتمع . ولكن وجود بعض البدع الغالبة على الناس أو بعض العادات السيئة أو بعض الأفراد المجان فى مجتمع أغلب ما هو عليه الطاعة والعبادة لا يبرر وصفه بأنه فى جاهلية . والشعب الميزابى فى تاريخه الإسلامى الطويل أبعد ما يكون عن المجتمع الذى صوره الأستاذ الدبوز بتلك الصورة الشوهاء التى لا يمكن بحال أن تكون صورة له فى أى عهد من عهوده الإسلامية . ولإبعاد هذه الصورة البشعة فى ذهن القارىء الكريم عن ذلك الشعب الطيب نعود إلى نفس الكتاب صفحة ٢٤٩ فقد جاء فيه ما يلى :

« لم تخل ميزاب من العلماء فى وقت من الأوقات ، يقومون بالشئون الدينية ، ويعظون العامة ، ويرشدونها . إن ميزاب فى كل عهوده كان متمسكاً بالدين غيوراً عليه . محافظاً على نظامه الاجتماعى الإسلامى لا يبغى عنه بديلا ، ولا يرضى له أن يضعف أو يضمحل . والدين يقوم على العلم ، وكذلك نظامه الاجتماعى ، فإنه بدون العلم فى العزابة ورؤساء العشائر وجمعية الشباب وغيرها لا يؤتى أكله . لذلك كان الميزابيون حريصين فى كل عهودهم على العلم ، غير أن انتشار العلم والثقافة فيهم يختلف فى العهود التى مرت عليهم فى ميزاب » .

ويقول فى نفس الكتاب صفحة ٢٤١ ما يلى :

« فهو الشيخ عمى سعيد بن على الجربى الذى وفد مع اثنين من العلماء

فأحيوا وادى ميزاب بعلمهم بعد الجهالة التى استولت عليه فى أول القرن العاشر الهجرى ـ كما أرى ـ ثم لم ينقطع العلم فى وادى ميزاب بعد ذلك ».

إن الفقرة الأولى التى نقلناها لك هنا هى الصورة الحقيقية لوادى ميزاب. وهى الرد البليغ من الأستاذ محمد على دبوز على تلك الصورة الشوهاء التى وردت فى الكتاب . أما الفقرة الثانية فهى تنص كما ترى أن العلم فى وادى ميزاب لم ينقطع منذ القرن العاشر . ومعنى هذا أن هذه الفترة قد مسحت ما وصف به الدبوز أهل وادى ميزاب فى الفترة التى سبقت أبا زكرياء الأفضلى وهى ـ ولاشك ـ الفترة التى تقع بين عمى سعيد الجربى وأبى زكرياء الأفضلى والتى كان فيها العالمان الفاضلان أبو مهدى عيسى وأبو يعقوب المصعبى كما كان بها أيضاً العالم المناضل القوى أبو محمد اليزقنى .

وأرجو أن لا تغرك ـ أيها القارىء الكريم ـ كلمة الجاهلية والجهالة التى ترد على قلم الأستاذ الدبوز فهى له بمثابة ستار يحجب به العصور التى سبقت من يتحدث عنهم ، فعندما يتحدث عن عمى سعيد يضع تلك الستارة على القرن التاسع وماسبقه . وعندما يتحدث عن أبى زكرياء يضعها على القرن الثانى عشر ومن سبقه ، وعندما يتحدث عن القطب يسحب تلك الستارة ويضعها على العصور التى سبقته واقرأ إن شئت فى نفس الكتاب وهو يتحدث عن جهود القطب فى الإصلاح ـ صفحة ٣٣٥ ما يلى: « وكان الأب فى عهد تلك الجاهلية » . وهكذا بكل بساطة يعتبر الأستاذ الدبوز العصور التى سبقت عمى سعيد عصور جاهلية ثم يعتبر العصور التى سبقت أبا زكرياء عصور جاهلية وضاعت فى هذه الصورة الآثار القيمة عن جهاد عمى سعيد ثم يعتبر العصور التى سبقت القطب عصور جاهلية وضاعت فى هذه الصورة تلك الآثار القيمة التى نتجت عن كفاح أبى زكرياء وضياء الدين. وأحسب

أنه حين يتحدث عمن جاء بعد القطب سوف يسحب نفس الستارة ويحجب بها عصر القطب . إن كلمة الجاهلية تقوم له مقام اللوح الأسود أو الخرقة السوداء عند المصورين تحصر له الضوء فى بؤرة محدودة هى التى يريد إبرازها للقارىء فى وضوح كامل . وإذا أزحتها عن جميع الصور فإن الصورة الصادقة لوادى ميزاب ـ فى عصور الانحطاط والركود العام ـ تبقى هى الصورة التى رسمها له الأستاذ الدبوز فى صفحة ٢٤٩ من كتابه هذا وهى[1]: إن ميزاب لم يخل فى عهد من عهوده من علماء أجلاء ولم ينحرف الشعب عن الدين ، ولم تتمكن منه البدع وإن لم يخل منها . ولم يخل من رجال يقومون لها ويقاومونها بشدة وإصرار ، والرجوع إلى من ذكرهم الأخ الدبوز فى كتابه من علماء وصلحاء ميزاب والمصلحين فيه ، ومعرفة تواريخهم وعصورهم وقيام مجلس العزابة طوال هذا التاريخ بمهمته ـ دليل كاف لإظهار الصورة الحقيقية لوادى ميزاب فى كل فترات تاريخه .

أما خرافة المرأة والميراث التى تحدث عنها الأستاذ الدبوز مرتين فى كتابه فأحسب أنه مما لا يتلاءم مع المنطق التاريخى. وما انجر إليه الأستاذ الدبوز استناداً على أخبار العوام ، والإشاعات المتناقلة بين الناس من أن الجهل قد سيطر على الوادى حتى أصبح أهله لا يعرفون فريضة الزوجة فى الميراث فكانوا يعطونها النصف بدلا من الربع أو الثمن لا يثبت حقائق تاريخية ولا يدل عليها .

إن هذه القصة غير مقبولة إطلاقاً . والميزابيون بأنظمتهم التى عاشوا عليها أحرص على المحافظة على الدين من أن يغيروا أحكام الله بهذه الدرجة.

---

(١) أوردنا نص العبارة فيما سبق من هذا الفصل لمن شاء مراجعتها .

كما أنه لا يستساغ مطلقاً بناء على قصة تنقلها الإشاعات العامة أن نتهم العلماء الأجلاء الذين سبقوا أبا زكرياء والذين علموه ودربوه ـ بالجهل أو بالرضاء والسكوت عن هذا المنكر وهم الأشد حرصاً على أحكام الإسلام. بل إنه لا يمكن أن تجرى أمثال هذه التغييرات فى الفرائض المنصوص عليها فى القرآن الكريم. ونظام العزابة قائم بشرف على تنفيذ أحكام الله، ويشرف على تصفية المواريث عقب الوفاة مباشرة.

إن قصة هذه المرأة إن صحت إنما هى قصة فردية. امرأة كانت تعتقد أنها سوف ترث النصف من مال زوجها، فخال أصحاب الحقوق دون ذلك فذهبت إلى أبى زكرياء الأفضلى العالم المتحرر ـ فى نظرها ـ الذائع الصيت الذى لا يرد قوله. تستفتيه، وكانت مقتنعة أن الحق لها، فلما أجابها بغير ما كانت تتوقع وتنتظر، قالت كلمتها وهى تنصرف محنقة يعتصر ألم الحرمان قلبها. بل إن القصة لا تدل بمفهومها ومنطوقها إلا على هذا فلو كان إعطاء النصف للزوجة عملا جارياً معمولا به، معروفاً بين الناس. لأعطى لهذه المرأة نصفها، ولما احتاجت هى أن تسأل أحداً. ولكن القضية هى أن أحكام الفرائض كانت تجرى فى ذلك المجتمع المسلم على ما وضعه الإسلام. وكان اعتقاد هذه المرأة يخالف ذلك. وربما قيل لها إن العالم الجديد له آراء أخرى غير ما عرفه الناس فأملت أن تحصل على فائدة وذهبت إلى أبى زكرياء مستفتية وشاكية ومخاصمة. فردها العالم الكبير إلى حكم الله. ومهما كان الأمر فإن هذه القصة لا تصور إلا حالة فردية هى خطأ من الأخطاء التى يقع فيها الأفراد كل يوم. أو جهل بحكم شرعى مما يمكن الجهل فيه، أو معصية مما يرتكبه الأفراد فى كل مجتمع

ولا يمكن أن نعطيها أكثر من ذلك مهما قيل عنها . أما الحكم على مجتمع مسلم بأنه فى جاهلية لأن امرأة منه زعمت أن ميراثها من زوجها يجب أن يكون النصف وذهبت تستفتى العلماء فى ذلك فليس من الحق وليس من الصواب وليس من حقائق التاريخ، على أن ما كتبه الأستاذ الدبوز عن المرأة الميزابية وعن ثقافتها وتديها فى مختلف العصور من تاريخها . ومحافظتها على نظام مجلس العزابة النسوى وحرصها على حضور الدروس ، بل على قيامها بالدروس فى المجتمع النسوى وما إلى ذلك يقوض أركان هـذه الخرافة من أساسها ولا يبقى لها أى ظل . وعد إن شئت إلى نفس الكتاب ، فسوف تجد فيه : « وللنساء فى ميزاب مجلس دينى من النساء العالمات الصالحات الورعات » . « يختارهن العزابة بدون تحيز ولا تعصب من العشائر » . « والمجلس الدينى للنساء يعين مجلس العزابة فى تثقيف المرأة الميزابية وتربيتها تربية دينية صحيحة » . « إن المرأة الميزابية بفضل التربية الدينية التى تكون لها من والديها وأسرتها والمجتمع . وهذا المجلس الدينى الذى يتعهد النساء وينفخ فيها الروح الدينية الصحيحة وو ـ ... متمسكة بدينها كل التمسك تخاف الله وتراقبه فى أعمالها . لا ترضى أن يخالف الدين أمامها . إنها امرأة صالحة ». والمرأة المتدينة الصالحة لا تأخذ ما ليس لها بحق . ولعله من المضحك أن يهتم الأستاذ الدبوز بهذه القصة كل هذا الاهتمام ويوردها فى كتابه مرتين شاهداً على أن الشعب الميزابى كان فى جاهليته . ثم يغرق فى النزع فيعلل ذلك بأنه نابع من طبع ميزاب الموروث من البربرية فى إكباره للمرأة وتقديره لها . مع أنه فى فصـــول أخرى من الكتاب يصفع البربر ، وينكر أن يكون الميزابيون منهم . يقول فى نفس الكتاب صفحة ١٦٧ ما يلى :

« ولا صحة لما يدعيه الاستعمار ومقلدوهم من أنهم بربر خلص . فالبربر الخلص إذا أمكن وجودهم فى المغرب[1] ففى رؤوس الجبـــال المنقطعة التى لا تعرف دولة ولا حضارة . أما الميزابيون فمتحضرون وأبناء أكبر دولة إسلامية نشأت فى الجزائر ، اختلطوا فيها بالشعوب الإسلامية سيما بالعرب فالدماء العربية فيهم أكثر ، يدل على ذلك فصاحتهم العربية وخلوهم من اللـكنة الموجودة فى بعض أنحاء البلاد » .

وسواء أكان الميزابيون بربراً أم عرباً ، أم كانوا خليطاً منهما ومن غيرهما . أم كانوا خليطاً من أحدهما ومن غيرهما . فقد تـكوّن منهم شعب ذو خصائص ومميزات احتفظ بها دون غيره لمحافظته على دينه ولابتعاده عن وصف الجاهلية لاتصافه بأخلاق الإسلام . وليس للمرأة فى هذا الشعب قديماً وحديثاً غير مكانها الطبيعى . وليس للمرأة عند البربر أو عند العرب فى القديم إلا مكانها كأم وزوجة وأخت وبنت . وقد قيل عن البربر ـ أو قالوا عن أنفسهم فى جاهليتهم ـ إنهم يكرمون الخيل ويهينون النساء ويعنون بذلك أنهم شعب جد وفروسية ونضال . وإن المتعة لا تستعبدهم ولا تضعف عزائمهم فتجعل منهم : أحلاس بيوت ، أو عبيدشهوات، أو عبدة إناث .

وقبل أن أختتم هذا الفصل يسرنى أن أقف وقفتين قصيرتين ، أعرض فى الأولى منهما رأياً عن المرأة الميزابية لأستاذنا الفاضل الشيخ باكلى عبدالرحمن حفظه الله ورعاه ، وأعرض فى الثانية رأى أستاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم فى هذا المقال نفسه وفى قصة المرأة السالفة . أرجو أن يتابعنى القارىء

---

(١) أقرأ عن هذا الموضوع ما كتبه الأستاذ الدبوز فى كتابه: تاريخ المغرب الـكبير ـ الجزء الأول .

الكريم فيهما لعله يستخلص منهما عبرة ، ولا شك أنه سيخرج منهما بفوائد .

الوقفة الأولى : فى سنة ١٩٦٥ وجهت سؤالا إلى أستاذنا باكلى عن موقف العزابة فى كفاح الباطل ، والرذيلة ، والظلم والبدعة . وقد أجابنى حفظه الله بجواب مطول بتاريخ ٢/ ١/١٩٦٥ جاءت فيه هذه الفقرة القصيرة « فى كفاح البدع : مسألة البناء على القبور والتوسل بها ، مسألة إلغاء ميراث المرأة على عادة الجاهلية وحسبما يجرى به العمل الآن فى بعض جهات القبائل. عدم احتجاب المرأة عن أحمائها » . ويقول فى مقدمته على الطبعة الثانية لكتاب النيل صفحة ١٣ ما يلى :

« اشتهرت فى أيامه ـ أى الشيخ عبد العزيز الثميني ـ عادات فاسدة كعدم احتجاب المرأة عن أحمائها ، وكفشو الوشم بين الرجال والنساء ، وتعاطى السعوط (الشمة) جهراً . وكعدم توريث المرأة النصيب المفروض إلى غيرها » . لعل القارىء الكريم لاحظ أن ما يقرره أستاذنا باكلى ـ حفظه الله ـ فى موضوع ميراث المرأة يناقض تمام المناقضة ما يقرره الأستاذ محمد على دبوز ، فبينما يذهب الدبوز إلى أن المرأة فى تلك العهود كانت تحصل على أكثر من حقها ، وأن الزوجة كانت تأخذ النصف من ميراث زوجها. يقرر أستاذنا باكلى أنها كانت محرومة بالكلية .

والذى يُستنتج من هذا أن الواقع الذى كانت تسير عليه الأحكام فى عمومها وتحت إشراف مجلس العزابة إنما هو الحكم الذى جاءت به الشريعة الإسلامية وأنه قد يشذ عن هذه القاعدة أحياناً بعض الأفراد فيعطون أكثر من الحق أو يمنعون الحق ، ويثور من أجل ذلك جدال ونقاش

ويقف العلماء بثبات حتى يضعوا الحق فى نصابه فتروى عن ذلك قصص تنتشر بين طبقات الشعب تغذيها الخيالات والأوهام والأهواء فتتسلل إلى أقلام المؤرخين .

الوقفة الثانية : كنت كتبت هذا الفصل وأنا متردد فيه ، ثم أخذت منه صورة وأرسلتها إلى أستاذنا الفاضل الإمام بيوض أعرض عليه الفصل وأستشيره فى نشره أو عدم نشره ، وقد جاءتنى منه رسالة بتاريخ ١٠/١١/١٩٧١ قال فيها حفظه الله ما يلى فيما يخص هذا الموضوع :

« رابعاً الفصل المستشار فيه من فصول كتاب (الإباضية فى الجزائر) لا نرى إسقاطه ولا إلغاءه . فإن نظرياتكم فى مناقشة الأستاذ معقولة ، ونحن نعلم كما تعلمون أنه إنما كتب ما كتب عن حسن نية ، وغفلة عما يتركه ذلك الوصف المبالغ فيه من أثر سيء عند من يتصيد أمثال هذه الهنات ، والباعث له حقيقة هو نفس ما علمتم به . وقضية المرأة السائلة عن ميراثها من زوجها لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال معبرة عن نزعة بربرية عريقة فى تقديس المرأة ، وإنما هذا خيال مفرط . على أن قصة المرأة وسؤالها وقولها للعالم المفتى (هذه شريعة خضراء) إنما وقعت حقيقة ببلدة القرارة . والعالم المسئول شيخ عمانى نزل القرارة وتزوج بها وعلّم فيها ، وكان يلبس جبة خضراء . ولذلك قالت المرأة قولتها تلك . واشتهرت بين أهل القرارة . وقد أدرك مشائخنا هذا الشيخ الجليل وعرفوه وسمعوا عنه ، وأعقب بنتاً عرفت بين أمهاتنا ببنت العمانى ، وأنت خبير أن بعض هذه الوقائع وهذه الأمثال تنقل من بلد إلى بلد ، وينسبها الجاهلون بحقيقتها وموردها إلى أشخاص آخرين . وهذا كثير وكثير جداً .

وبعد .. فإن الفصل آتيك ضمن هذا الكتاب ، وإذا أمكنك أن تمر بيدك الناعمة عليه ، فما أحسست من خشونة فى كلمة صقلته[1] .

وإن له لفضلا كبيراً فيما يعانيه من إبراز تاريخ أمته جملة وتفصيلا كما يليق بكرامتها » .

أحسب أنه لم يبق ما أزيده بعد هذه الكلمة الرائعة لأستاذنا العظيم حفظه الله ورعاه سوى أن أشكر الأستاذ الدبوز محمد على ، على مجهوده العظيم القيم ولقد كان كتابه هذا وكتبه الأخرى من بين المراجع الهامة التى اعتمدت عليها ورجعت إليها فى كثير من الأحيان واستفدت منها فوائد جلى ، ساعدتنى فى أبحاثى وتكوين آرائى .

أعان الله الأستاذ الدبوز على إتمام ما عزم عليه ، ويسر له الوصول إلى ما يصبو إليه من خدمة الأمة والوطن .

---

(١) بعد رسالة أستاذى الفاضل الإمام بيوض إبراهيم حفظه الله رأيت أنه من واجبى أن أنشر الفصل . وأن أعود إليه فأعيد صياغته وقد حذفت منه جملا وزدت فيه جملا . واستشهدت بأى أستاذنا باكلى حفظه الله فإننى لم أعرض له فى الفصل حين عرضته على أستاذى حفظه الله فإن كان فى الفصل ما يجرح إحساس أخى وزميلى الدبوز فأنا أعتذر إليه وهو يعلم أنى من أبناء الجيل لابد أن يكون فى طبعى شىء من طبعه وفى أسلوبى بعض من خشونته .

ميزاب فى نظر مستشرق

إن للمستشرقين والمستعمرين الغربيين أساليبهم الخاصة عندما يكتبون عن أى بلد من بلدان الشرق وهم يدعون النزاهة والعلمية ، ولكن الواقع أن الكثير منهم لايدعون فرصة تفوتهم لكى يبثوا السموم فيما يكتبونه عن الشرق، وهذا مستعمر فرنسى كتب عن الجزائر وعن ميزاب ، وفى كتابه كثير من المغالطات والسموم. وفيه بعض الحقائق ، ولقد طلبت من أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن أن يترجم لى الفصل المتعلق بوادى ميزاب فأجاب مشكوراً ، وقد رأيت أن أنقل عنه بعض الفقرات فقط وأن أترك كثيراً من التشويهات والأكاذيب دون أن أثقل بها على القارىء الكريم وربما أنقل له واحدة من الأكاذيب كنموذج .

قال شيخنا باكلى عبد الرحمن ما يلى :

« الكتاب هو كتاب : صحراء الجزائر . تأليف العقيد توماس المدير المركزى للشئون العربية بالجزائر ، نشره بإجازة المارشال دوق دى دالماس رئيس وزراء فرنسا يومئذ ووزير الحرب . مطبوع فى باريس سنة ١٨٤٥ م. بعد أن ساق خلاصة يظن أنه استقاها من بعض خصوم الميزابيين تشتمل على ما ينبزون به من قبل مخالفيهم الذين ينظرون إليهم كمارقين من الدين. قال: « ومهما كان الأمر فإن الميزابيين أشد تديناً من العرب، يتخذون ثياباً خاصة بالصلاة ، لايسكرون ، ولا يزنون ، يصومون ويصلون ويسبغون الوضوء ، يبالغون فى تطهير تقاليدهم إلى حد التشديد والغلو ، فهم يعتبرون لذلك زهاد الصحراء المصلحين .

وللواحد منهم — وهو الواقع - أن يتخذ زوجات أربع ولكنهم يحجبونهن عن أعين الناس عكس أعراب البادية ، فالابن لا يمكنه أن يرى سوى أمه، والأخ لا يسوغ له أن يرى زوجة أخيه ، فإذا خرجن خرجن متلفعات إلا عيناً واحدة . الزانى عندهم يرجم ، ويغرم غرامة باهظة ويعزر خمسمائة جلدة ويغرب ، فهم متدينون محافظون على عقيدتهم ، أعداء الكذب ، يموت أحدهم جوعاً ولا يخون الأمانة المودعة عنده فكأن لسان حاله يقول لها : حفظك الله نامى فأنا ساهر عليك .

لا يأكلون إلا ما يطبخونه ويحضرونه بأنفسهم عفة ومبالغة فى الزهد، لا ينشقون السعوط ولا يدخنون ، ويرون ذلك محرماً شرعاً ويرون الإسكار جريمة بحيث لو سكر يهودى لفتشوا محله ، وقد يفتشون محال ذويه أحياناً وما عثروا عليه لديهم من جرار الخمر حطموه فى البطحاء العامة بين سمع الناس وبصرهم . وإذا زنت يهودية غربت بكيفية مخجلة وهذا مما يؤسف له» .

وبعد كلام يقول : « ولقد تسرب بعض اليهود إلى ميزاب فآووهم وأظهروا معهم تسامحاً لم يجدوه مع غير الميزابيين على شرط أن يخضعوا لقوانين البلاد ويحترموا تقاليد الذين آووهم ، ويتمتعون معهم بحريتهم كاملة: لهم كنائسهم وأحبارهم ومدارسهم . ويُسمح لهم أن يلبسوا لباساً يشبه لباس الميزابيين على أن تكون لهم علامة تميزهم ، وذلك أن لا يلبسوا الحائك . وأن يتعمموا بعمامة سوداء ، وليس لهم أن يركبوا الخيل، ولهم - كما فى الأماكن الأخرى - أن يحترفوا التجارة والحلاجة والصباغة والصياغة » .

وبعد كلام يقول على من يريد أن يكون ميزابياً أى أن يتحصل على الجنسية الميزابية :

« وإذا قبل أحدهم ذلك فإن قبوله لايتم إلا باعترافه أمام الشيخ ، ورغم ذلك لا يعتبر ميزابياً خالصاً إلا بعد أربعين جيلا . هذه الخطوط الرئيسية لمنظمة إدارية دينية جديرة بالدراسة ، وتنقصنا لاستخراج العبر مع الأسف المعلومات الكافية الدقيقة عن أصل هذا الشعب الوحيد » .

هذه هى الصور التى أردت أن أعرضها عليك أيها القارىء الكريم ، وسوف أنقل لك تعاليق لشيخنا باكلى حفظه الله عن بعض النقط منها :

١ ـ التعليق الأول عن قوله : « فالابن لا يمكن أن يرى سوى أمه » « قال شيخنا باكلى : ليس الأمر كذلك بل يباح له أن يرى المحارم اللائى حرم الله عليه زواجهن المذكورات فى قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتى ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن، فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم، وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم، وان تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف، ان الله كان غفورا رحيما . والمحصنات من النساء** ﴾[1] .

٢ ـ التعليق الثانى عن قوله : « الزانى يعزر خمسمائة جلدة » . قال شيخنا باكلى حفظه الله : فالله يقول: ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾[2] لا خمسمائة جلدة .

٣ ـ التعليق الثالث عن قوله : «لا يعتبر ميزابياً خالصاً إلا بعد أربعين جيلا » قال شيخنا باكلى حفظه الله : ليس الأمر كما قال المؤلف من أن الذين يدخلون الجامعة الميزابية لا يعتبرون لديهم ميزابيين أقحاحاً إلا بعد مضى أربعين جيلا ، فالواقع التاريخى ينفيه لأننا وجدنا عائلات كثيرة من

---

(١) النساء : ٢٣ ، ٢٤ (٢) النور : ٢

مختلف قرى الوادى ـ ولاتزال إلى أيامنا ـ كانت مالكية فتأبضت، وإنها لتعتبر من صميم الميزابيين، ولا يكاد يستشعر من لا يعرف سابق أمرهم شيئاً اللهم إلا إذا بقيت عائلة على سيرتها الأولى من رقة الدين وفسولة الأخلاق فيحترز منهم لذلك كما يحترز من الإباضية الأصلاء إذا كانوا كذلك لا لأجل أنهم كانوا فصاروا .

على أن غالب العائلات التي كان أصلها عربياً فتوطنت ميزاب كانت غير إباضية فتأبضت وإنها لتعتبر من صميم أبناء ميزاب لا فرق بينهم وبين من سبقهم بأجيال على أننا لو ناقشنا أصل النظرية لوجدناها غير واقعية . ذلك أن الجيل عبارة عن أربعين سنة على أصح الأقوال ، وأربعين جيلا عبارة عن ١٦٠٠ سنة ، ولم يكن لميزاب بمدنه الحالية هذا العمر ، فالنتيجة أن سكان ميزاب ليسوا بميزابيين أقحاح . وهذا تناقض وقضية باطلة من أساسها لا يقول بها أحد حتى المؤلف نفسه على ما يظهر .

ولا يبعد أن يكون قد استوحى هذا الزعم من معاملة بعض الجهال العنصريين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان . متعمداً إثباتها كحقيقة تاريخية لحاجة فى نفسه على ما أرى . لأن مؤرخى الغرب وإن تظاهروا بالتحقيق العلمى وبإنصاف التاريخ إلا أن عسلهم لا يصفو من مغافير إن لم نقل من سم . وغالبهم منشبعون بالروح الاستعمارية يخدمون ركابه بقآ ليفهم ولا يتورعون أن يزخرفوا نظريات من شأنها أن تحدث الخلاف بين صفوف الأمة عملا بسياسة « فرق تسد » ومؤلف كتاب (صحراء الجزائر) من القواد العسكريين المتشبعين بروح السيطرة والاستيلاء . فلا نكون ظالمين إذا اتهمنا حسن نيته فى هذا الميدان ، وإن لنا فى هذه القطعة التي ترجمناها عنه

لغمزات ، وإن تعمده الإطلاق فى عبارته ابتغاء الفتنة كما فى رقم ٣ ورقم ٤ لقرينة على صحة هذا الاتهام . والاستعمار مكيافيلى النزعة مبدؤه : الغاية تبرر الواسطة .

أما أن يكون ما أثبته توماس فى النقط التى علّق عليها وفيما لم ننقله ـ هو واقع الأمة الميزابية فلا ولا . والتاريخ الحق حكم بيننا ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

ميزاب فى نظر مستغرب

إذا ظن القارىء الكريم أن ما تدل عليه كلمة (مستغرب) هو ضد ما تدل عليه كلمة (مستشرق) فهو مخطىء . بل إن المعنى الذى تدل عليه كلمة مستغرب هو نفس المعنى الذى تدل عليـــه كلمة مستشرق ، فهما كلمتان مترادفتان وكل ما بينهما من فرق أن كلمة مستشرق تدل على إنسان غربى يحمل فكراً غربياً ، وقلماً غربياً ينطلق بهما إلى الشرق بدعوى خدمة العلم ليمهد للغرب وسائل احتلال جزء من الشرق ، إما احتلالا عسكرياً ، أو فكرياً ، أو خلقياً ، أو دينياً ، أو كل ذلك .

وأما كلمة مستغرب فهى تدل على أن إنساناً شرقياً ينطلق إلى الغرب بدعوى الحصول على العلم ، فيحصل على فكر غربى ، وقلم غربى ، ينطلق راجعاً بهما إلى بلاده فى الشرق ليقوم فيهـــا بنفس الدور الذى كان سيقوم به المستشرق . موفراً بذلك على دول الاستعمار ـ بكل معانيه ـ وعلى مؤسساته ، تلك المصاريف الباهظة التى كانت تتكبدها لتمويل المستشرقين والمبشرين وأشكالهم بمختلف الأساليب . كما يوفر عليها حدة رد الفعل الذى يحدثه دخول أجنبى إلى مجتمع شرقى ليهدم . وهكذا يبدأ المموّل الهدام الذى صمم ـ خصيصاً للشرق ـ فى مصانع الغرب يتحرك داخل الحصن بيد أحد سكان الحصن يعمل بجد ورتابة معتقداً أنه أدى واجباً ، أو حصل على منزلة ، أو ملأ فراغاً . وهو إنما أدى دوراً ، ودخل فى (حصالة) واشتغل على فراغ .

لقد نجح المستشرقون فى مهمتهم أعظم نجاح ، فيهم استطاع الغزو الفكرى أن يتغلغل فى رؤوس الشرقيين ، والأضرار التى نجمت عن جهود

المستشرقين والمبشرين فى العالم الإسلامى كانت أفدح ألف مرة من الأضرار التى تركتها فيه جحافل جيوشهم الجرارة . ولا شك أن الأضرار المادية التى خلفها الاستعمار العسكرى قد استطاعت الشعوب الإسلامية أن تتلافاها بعد أن خرج الاستعمار العسكرى من بلادها . أما الأضرار التى خلفها المستشرقون فى العقائد والقيم والأخلاق والفكر فهى لا تزال تقرع فى آذان المسلمين . وقد اختفى شبح أولئك المستشرقين من بلاد الإسلام ، ولكن تلاميذهم (المستغربين) وقد احتلوا مكانهم وأصبحوا يسيطرون على أعظم مؤسسات الثقافة والتوجيه ولا يزالون يوالون جهودهم بنفس الأسلوب وبنفس الحماس والنشاط ، ولم يتغير عندهم أكثرهم إلا الاسم ، فبعد أن كان المستشرقون يحملون أسماء غربية مثل كريستو ، وفيليب ، وتوين . صار المستغربون يحملون أسماء عربية مثل مصطفى ويحيى وإبراهيم . أما الحقيقة فهى حقيقة واحدة يخفيها الأول تحت ستار خدمة العلم . ويظهرها الثانى فوق بطاقة الجنسية .

هذه خاطرة خطرت لى وأنا أقرأ فصلا من كتاب أرجو أن لا يعلق عليها القارىء أهمية فيما نحن بصدده . ولننتقل إلى ما نريد الحديث عنه فى هذا الفصل .

أراد الدكتور يحيى هويدى أن يكون فيلسوفاً فتحصل على دكتوراه فى الفلسفة من باريس ، وكتب فى الفلسفة كتابات عدة يهمنا منها ـ هنا ـ فصل من كتاب (تاريخ فلسفة الإسلام فى الشمال الإفريقى) ويبدو من قراءة ذلك الفصل أنه فتات من عدة موائد جمعت لتشغل حيزاً من كتاب ، وسوف ننقل فيما يلى فقرات منه مع بعض (الملاحظات البسيطة والخفيفة) :

قال فى صفحة : (٥١ ـ ٥٢) ما يلى :

١ ـ « وحوالى ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ ـ ١٠١٠ م) انتهى مطاف الوهبية الإباضية فى الشمال الإفريقى جنوب وارجلان فى كريمة وسدراته بالجزائر ونزحوا إلى إقليم شبكة مأزب حيث ظلوا يعيشون حتى اليوم » . فى هذه الفقرة ملاحظتان :

إحداهما: يجثم عليها ظل المستشرقين الكالح بوضوح ، فتصوير الإباضية بصورة مجموعة من الناس تطوف من مكان إلى مكان حتى استقر بهم المطاف فى مكان ما هى نفس الصورة التى خطرت للمستشرق نلينو حين صوّر الإباضية بأنهم فرقة نزحت من الشرق إلى الغرب تاركة وراءها عقائدها ثم جعلت تستعير العقائد من المعتزلة والشيعة لتملأ بها فراغ نفسها ، فقد قال نلينو : « فكان الجزء الأكبر من مذهب الإباضية فى إفريقيا إذن معزلى . فهل هم أخذوه وهم فى الشرق من قبل أن ينزحوا إلى بلاد المغرب ، أم هم تقبلوه فى شمال إفريقيا تحت تأثير اتصالهم بالأدارسة من الشيعة » .

وهذه ولاشك صورة مضحكة ، ومما يزيد فى طرافتها أن يأخذها الدكتور هويدى ثم يعبر عنها بأسلوبه الخاص كأنها نابعة من خياله هو لا من خيال نلينو مستعملا كلمة الطواف بدلا من النزوح .

والواقع الذى ينبغى أن يعرفه الدكتور هويدى أن الفرق الإسلامية بما فيهم الإباضية ليسوا فرقاً متكونة من مجموعات متنقلة كطوائف الغجر تطوف من مكان إلى مكان . إن الإباضية هم لسكان الأصلاء لأغلب مناطق المغربين الأدنى والأوسط ثم عملت السياسة عملها فزحزحت بعضهم عن أماكنهم وأذابت بعضهم فى غيرهم وثبت أهل وارجلان وسدراته

وبنى مصعب على وضعهم ؛ وربما هاجر إليهم غيرهم فراراً من واقع أليم .
ولا صحة لما توحيه عبـــارة الدكتور فى قوله : « انتهى بهم المطاف » .
ولا قول المستشرق « قبل أن ينزحوا من بلاد المغرب » فإن الإباضية لم يعرفوا الطوافة بأى معنى من معانيها فى جميع فترات تاريخهم . ولم يكن ابتداء عمران وارجلان وسدرائه وكريمة بالإباضية ابتداء من القرن الرابع كما ظن الدكتور ، وإنما كانت وارجلان ومنطقتها عامرة بالإباضية منذ دخل المذهب الإباضى إلى الجزائر فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى الهجرى وكانت فى القرن الثالث تعتبر من أعظم عواصم الإباضية فى شمال إفريقيا ، ولذلك التجأ إليها يعقوب بن أفلح بعد تخريب تاهرت وأبو نوح سعيد بن زنغيل عندما طارده الفاطميون ليحتموا فيها وبها من ملاحقة المطاردين .

أما الملاحظة الثانية: فهى ذلك الخطأ الشائع الذى يقع فيه كل عربى ذى ثقافة غربية يعتمد على المصادر الأجنبية ، فينقل عنها أسماء فتـأتى محرفة لأن النطق والـكتابة فى اللغات الأجنبية غير النطق فى اللغة العربية ، ولأن بعض الأصوات الواضحة فى اللغة العربية ليس لها حروف فى تلك اللغات أمثال العين والحاء والضاد .

والذى وقع فيه الدكتور هويدى هو أنه حرف ميزاب إلى مأزب نقلا ـ فيما يبدو ـ عن بعض كتابات الغربيين عن بنى ميزاب كما أن ما كتبه فى هذا الفصل يدل أنه لا يفرق بين مأزب التى جاء بها والزاب ، أما كلمة ميزاب فلم ترد على لسانه فى هذا الفصل لأنه لا يعرف حقيقة المـكان ولا حقيقة أهله ، وإنما وجد فنقل دون معرفة أو فهم .

وقال الدكتور هويدى فى نفس الفصل ما يلى :

٢ ـ « وبنو مأزب يؤمنون بأن مثال الخلافة كان فى الخلافة الكاملة أى فى الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين حتى عام ٣٨ هـ ، وهو العام الذى خرج فيه الإمام عبدالوهاب الراسبى على سيدنا علىّ بن أبى طالب (وقد قتل علىّ بعد هذا بعامين أى عام ٤٠ هـ)» .

هذه فقرة لا تحتاج إلى تعليق والمسلك الملتوى الذى سار معه المؤلف لا يبلغه إلى مقصده وإذا كان بنو ميزاب يرون أن الخلافة الكاملة فى الأمة الإسلامية هى ما كان عليه الخلفاء الراشدون فإنه لا يخالفهم فى هذا الرأى مسلم ولو خالفهم لم يجرؤ على إعلان خلافه . أما الاسم الخرافى الذى جاء به فلا نجد له ذكراً فى مصادر التاريخ التى نعرفها ، ولعله يقصد عبد الله ابن وهب الراسبى ، ولا نعرف أى معنى لخصمه سنتين من خلافة أمير المؤمنين علىّ . أما تعبيره الذى جرى عليه فى هذا الفصل بقوله : « بنو مأزب يؤمنون » فى قضايا ليست من مسائل الإيمان ، فلا تدل إلا على إحدى ثلاث : الاستهتار والاستخفاف ، أو الجهل ، أو النقل المغفل البليد .

ويقول الدكتور هويدى فى نفس المقال ما يلى :

٣ ـ « ويؤمنون بأن من حق المسلمين أن يعزلوا الخليفة إذا حكموا بانحرافه » عبارة أخرى ملتوية لا تقتضى الوقوف لأن الالتواء فيها ظاهر لكل قارىء ولا مكان لكلمة (يؤمنون) فى هذه الفقرة كالتى قبلها والتى بعدها ، أما جملة « إذا حكموا بانحرافه » فقد صيغت ـ على ما يبدو ـ هكذا بقصد ، والقضية ليست قضية بنى ميزاب فقط وإنما هى قضية الأمة المسلمة جمعاء ، منهم من يرى أن من حق الأمة أن تعزل الخليفة إذا انحرف عن سبيل الله ، ومنهم من يرى لها الصبر والتحمل .

ويقول فى نفس الفصل ما يلى :

٤ ـ « ويؤمنون بأن الخلافة تكون بالانتخاب وإذا كان الأمر بيد سلطان الجور فلابد من تأجيل الانتخاب » .

هذا الكلام ساقط لا معنى له ولا داعى للإتيان به ، ذلك أن الأمر إذا كان بيد سلطان الجور فما موقفهم فى التأجيل أو التعجيل ، وما دام سلطان الجور قائماً فهل فى إمكانهم أن يعجلوا الانتخاب ، وهل فى استطاعتهم أن يؤجلوا الانتخاب ، إنهم صابرون كما يصبر غيرهم على المحنة حتى تزول . وليس هذا موقف بنى ميزاب فقط ، ولا هو موقف الإباضية فقط ، وإنما موقف الأمة المسلمة جمعاء منذ بدأت تُنكب بسلاطين الجور ، لا خيار لها بين أمرين ، إما أن تخوض الدماء لقلب نظام الحكم ، وقد يتساق الحكم من هو أسوأ من الأول ، وإما أن تصبر على مضض حتى يفرّج الله .

ويقول فى نفس الفصل ما يلى :

٥ ـ « وإباضية مزاب يعدون أنفسهم فى دور الستر ، وهو الدور الذى بدأ بسقوط تاهرت عندما أعلن الإمام الإباضى يعقوب أنه لامجال لانتخاب إمام بعده ، وكان ذلك حوالى عام ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ ـ ١٥٠٤ م) .

تذكرنى هذه الفقرة بنوادر مرت علىّ فى بعض مطالعاتى منها : أن رجلا يتظاهر بالعلم والعقل والوقار ، سئل عن علىّ فقال : أليس هو أبو فاطمة ؟ قالوا : ومن كانت فاطمة ؟ قال : امرأة النبى عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية وقد قتل علىّ فى غزوة حنين .

ومنها أن رجلا جاء إلى الوالى يشكو أن جاراً له يتزندق ، فسأله الوالى عن مذهب الرجل فقال : إنه مرجىء قدرى ناصبى رافضى . فاستوضحه الوالى

عن مقالته فقال : إنه يبغض معاوية بن الخطاب الذى قاتل علىّ بن العاص . فقال له الوالى : ما أدرى على أى شىء أحسدك ؟ أعلى علمك بالمقالات . أو على بصرك بالأنساب .

ولسنا ندرى نحن والله على أى شىء نحسد الدكتور فى هذا الفصل؟ أعلى اختياره للمراجع . أم على فهمه للمصطلحات . أم على معرفته لتاريخ ما يكتب عنه . أم على تحقيقه للأحداث وأسماء الأشخاص؟؟. ولعل الفقرة السابقة وحدها تعطينا صورة كاملة عن جميع ذلك .

وأرجو أن يفهم الدكتور هويدى وأن يعرف القارىء الكريم أن بنى ميزاب خاصة، والإباضية عامة لا يعرفون ما يشير إليه الدكتور من دور الستر هذا . ولا يستطيع هـذا الدكتور ولا أى مستشرق أو مستغرب أن يجد كلمة الستر أو السر عند الإباضية بهذا المعنى الذى يلّوح إليه المؤلف ، ومن المؤسف أن يقع دكاترة مسلمون فى مزالق أو مطبات يتعـــثر فيها المستشرقون لبعدهم عن فهم المسلمين واعتمادهم على الفهم المادى للكلمات المفردة فى اللغة العربية .

ولعل السبب الذى أوقع هؤلاء الناس فى هذا الخبط العشوائى يرجع إلى نقطتين هما :

الأولى : يجدون كلمة السر عند بعض فرق الشيعة فى حديثها عن الأئمة المحتجبين فظنوا أن مثل هذا يكون عند الإباضية .

الثانية : أنهم يجدون كلمة الكتمان عند الإباضية ولا يفهمون المعنى الاصطلاحى الذى وضعت له ، فترجمها المستشرقون بمعناها اللغوى عندهم فلما

أراد المستغربون ترجمتها إلى اللغة العربية ترجموها بما تدل عليه تلك الكلمة فى اللغات الأجنبية ، وهى السر والستر ، ثم وضعوا تحتها ما يجرى فى مخيلاتهم من معانى لهذه الكلمة مستوحين ولو من بعيد ما تقوم به الجمعيات أو المؤسسات السرية فى بلادهم وما يشاع عن بعض فرق الشيعة فى هذا المقام.

إن كلمة الكتمان عند الإباضية لاتتعلق بها أى أسرار . وهى ليست حالة خاصة ببنى ميزاب ولا بالإباضية ، وإنما هى إحدى حالات أربع لابد أن تكون عليها الأمة المسلمة الكاملة أو جزء منها بعد أن انقسمت إلى أجزاء ارتفعت بينها الحدود .

الحالة الأولى :

أن تكون الدولة مسلمة مسيطرة على بلادها عاملة بشريعة الله منفذة لقوانينه ، وأكمل صورة لهذا الوضع دون أى خلاف هى الحالة التى كانت عليها الأمة الإسلامية تحت قيادة النبى ﷺ فى المدينة المنورة وفى عهود الخلافة الرشيدة ، وتسمى هذه الحالة (الظهور) .

الحالة الثانية :

أن تكون الأمة المسلمة فى حالة كفاح ونضال فعلى تحت قيادة دولة مؤقتة ، وأوضح مثال لهذه الحالة هى الثورة الجزائرية منذ قيامها حتى حصولها على الاستقلال ، وتسمى هذه الحالة (الدفاع) .

الحالة الثالثة :

أن تكون الأمة المسلمة تحت سيطرة حكم غالب أجنبى أو منحرف لا تستطيع فيه الدفاع المتواصل ، ولكنه من حين إلى حين تقوم فرق من الفدائيين أو الثوار أو الشراة لمهاجمة الأنظمة الظالمة المسيطرة . وأظهر حالة

لهذا فى هذا العصر هو فلسطين والجماعات التى تقوم داخل فلسطين بالأعمال الفدائية ؛ وتسمى هذه الحالة (الشراء) .

الحالة الرابعة :

أن تُغْلب الأمة المسلمة على حالها ويقضى الاستبداد وحكم الحديد والنار على أى نوع من المقاومة فيها فتبقى مشتغلة بشعائرها الدينية فقط لاتقوى على (الدفاع) ولا على (الشراء) وهذه الحالة هى ما يسمى (بالكتمان) ؛ وأوضح مثال له فى الماضى الأمة الإسلامية عندما كانت بمكة والسلطان فيها لمشركى قريش ، أما فى العصر الحاضر فقد كانت الأمثلة فيه كثيرة والجزائر كلها كانت فى عهود كتمان فى أغلب الحالات بعد الاستعمار الفرنسى ، ولو أراد المؤرخ أن يتتبع فيها أحداث التاريخ فى الجزائر لاستطاع أن يقسمها إلى ثلاثة :

قسم تكون فيه فى حالة دفاع ، كما كانت فى عهد ثورة الأمير عبد القادر والثورة التى أخرجتها من مسلك الدفاع إلى مسلك الظهور ، وقسم تكون فيه فى حالة شراء كما كانت فى بعض الانتفاضات الصغيرة التى كانت ما تنفك تثور هنا أو هناك ، وقسم تكون فيه فى كتمان وهى أطول الحالات التى مرت بالجزائر فى عهد الاستعمار الفرنسى . ونفس الظروف مرت على ليبيا وعلى غيرها من البلدان الإسلامية التى سيطر عليها الاستعمار لفترة من الزمن طالت أو قصرت . والأمة المسلمة فى ليبيا فى الفترة التاريخية ما بين سنتى (١٩٣٠ ـ ١٩٤٠م) تقريباً هى فى حالة كتمان أو فى مسلك الكتمان على حسب ما عند الإباضية ، هذه هى الصورة الواضحة للكتمان وقد يلحق به اليوم تلك البلاد التى تقوم فيها دول لا تحكم بدين الله ولا تعمل بقانون شريعته ولا تلتزم بتنفيذ أحكامه ، وإنما تحكم بدساتير وضعها بشر من الشرق أو من

الغرب ترجع إلى فلسفة الناس لا إلى تشريع الله ، فالشعوب الإسلامية التى تخضع لمثل هذه الدول هى فى حكم السكتمان مهما كان مذهب الشعوب ومهما كان مذهب الحكام، لأن أحكام الله فيها معطلة وليس فى الموضوع أسرار ولا أستار ولا أدوار .

وقد ذكر الدكتور هويدى فى الفقرة السابقة أن يعقوب بن أفلح أعلن عن دور الستر سنة ٩٠٩هـ (١٥٠٣ ـ ١٥٠٤م) عند سقوط تاهرت . والصحيح أن تاهرت إنما سقطت سنة (٢٩٦ هـ) لا سنة (٩٠٩ هـ) كما هو معروف فى جميع كتب التاريخ ، ويعقوب بن أفلح لما سقطت تاهرت لم يكن فى منصب حكومى ولكنه فر من تاهرت خوفاً من العبيديين ، فعرض عليه بعض الناس أن يبايعوه بالإمامة فرفض ، ولما وصل وارجلان أعيد عليه العرض من جديد فرفض لتقديره للظروف ولمعرفته أن ذلك لا يتم بعد أن تفرق جمعهم وخربت عاصمتهم، ووقعت الفتنة والخلاف فى بيت الإمامة نفسه فانقسم أتباعهم لذلك . فكل موقف يعقوب فى هذا المقام هو امتناعه عن قبول البيعة . ونصيحته للناس بعدم القيام بمغامرة ؛ الفشل فيها أقرب كثيراً من النجاح . ومع كل ذلك فيعقوب لم يكن فى ذلك الحين إماماً، وحتى لو كان إماماً فإن الأئمة عند الإباضية ليسوا معصومين كأئمة الشيعة ، وأقوالهم وأعمالهم وآراؤهم وأحكامهم كلها لا منزلة لها فى نفسها عند الإباضية ؛ وإنما منزلتها بمقدار ما انبنت عليه من أحكام الشريعة .

ومن هذا يتضح أن هذه الفقرة من كلام الدكتور ليست إلا نادرة أخرى مما ينبغى أن يصنف فى كتب النوادر والملح ، لا فى كتب التاريخ والفلسفة .

ويقول فى نفس الفصل ما يلى :

٦ ـ « والتنظيم الذى يخضع له أهل المأزب قائم على نفس هذا الأساس أى على أساس أنهم يمرون بدور الستر » .

هكذا ببساطة استطاع الدكتور أن يقدم مقدمات ويبنى عليها نتائج : (يعقوب بن أفلح إمام الإباضية عند سقوط الدولة الرستمية فى أواخر القرن الثالث أعلن عن دور الستر وذلك فى القرن العاشر وخضع له أهل المأزب الذين بدأ تكونهم فى القرن الخامس) . إنها أحداث تاريخية لا يفهمها إلا من أوتى عقل دكتور فيلسوف .

ولكى يتضح الموقف وضوحاً كاملا للدكتور نقول له إن أهل وادى ميزاب لم يكونوا فى أى يوم فى دور ستر، وأن يعقوب بن أفلح لم يعرف هذا الدور ولم يعلن عنه. وإنما كان بنو ميزاب كما كان غيرهم من الشعوب الإسلامية فى فترات كثيرة من التاريخ فى حالة كتمان، وقد خرج بنو ميزاب والشعوب الإسلامية كلها من سيطرة الحكم الأجنبى وجعل الله الدول القائمة عليها عاملة بالإسلام فلا يبقى للشعوب الإسلامية جميعاً إلا حالة الظهور التى يعز فيها الإسلام وتعز فيه شعوبه .

٧ ـ بعد الفقرات السابقة أراد الدكتور أن يتحدث عن نظام العزابة فركض وراء الخيال والأوهام ،ومزج بين ما يسمعه عن أدوار الستر عند الشيعة بما يسمعه عن أسرار وتحكم الكنيسة ، وخرج من ذلك بصورة ممسوخة جعلها لنظام العزابة . أجزاء تلك الصور هى: أدوار الستر ، التوحد والاعتزال، العزوبة وعدم الزواج ، جباية الأموال ، الاعتراف والغفران .

ولا شك أن القارىء الكريم يلحظ بوضوح ألوان الكنيسة وأصابع

المستشرقين التى تغزل هذه الخيوط . والدكتور نفسه أحالنا فى آخر الفصل على المستشرق الذى غزل خيوط هذا الفصل ، وكل ما قام به الدكتور من مجهود هو أنه سافر من الشرق إلى الغرب ليأخذ عن الغرب صورة لمكان فى الشرق ليعرضه بمنظار الغرب فى الشرق ؛ ولم يخطر له أن يصوره من مكانه القريب فى الشرق لأن آلة الدكتور غربية ولا تسجل الصور إلا إذا وُجهت من الغرب .

ويسرنى فى ختام هذا الفصل أن يعرف القارىء الكريم أن نظام العزابة نظام تربوى عملى لا سر فيه ولا أستار ، ولا يجبى الأموال ، ولا يغفر الذنوب ، ولا يعتزل الناس ، ولا يشترط العزوبية ، وليست له فترة محدودة ولا هو مسلك من مسالك الدين فهو كما يكون فى حالة الكتمان يكون فى حالة الشراء ، وفى حالة الدفاع ، وفى حالة الظهور .

وبنو ميزاب الآن وهم فى حالة ظهور والحمد لله بعد استقلال الجزائر لا يزالون يحتفظون بنظام العزابة ، ولعل أهم نشاطاته فى عهد الظهور هو محاربة المعصية والقضاء على أسباب الرذيلة بمختلف أشكالها ، بالإضافة إلى القيام بمهام المسجد عموماً وبشئون التعليم الدينى ، وحفظ القرآن الكريم . ومن يزعم اليوم أن بنى ميزاب يمرون فى هذا العهد بدور سر أوستر كما يفهم الدكتور هويدى ، أو هم فى حالة كتمان ، فهو أحد رجلين : إما أنه رجل يجهل عما يتحدث ، وإما أن يكون رجل سوء يضمر الشر ببنى ميزاب ، ويبغى أن يحطم المشاريع الضخمة الذاتية التى تقوم بها فيحاول أن يوهم الدولة الجزائرية اليقظة بأن هذا القسم من أبناء الشعب الجزائرى البطل ، له ظاهر وباطن . ولن يكون مثل هذا الرجل إلا جرثومة فساد يعمل لهدم الجزائر كلها بتهديم أجزائها .

ملاحظة :

من حق الدكتور هويدى علينا أن نذكر للقارىء الكريم أن الشعب الجزائرى ـ بما فيه بنو مصعب ـ كان تحت الاستعمار الفرنسى حينما ألف الدكتور هويدى كتابه عن فلسفة الإسلام فى شمال إفريقيا ؛ فبنو ميزاب كانوا ـ حينئذ ـ فى حالة الكتمان كما كانت الجزائر كلها، ورغم أن بنى ميزاب تربطهم بفرنسا فى ذلك الحين معاهدة حماية فهم أيضاً فى حالة كتمان لأنه بفرض الحماية الأجنبية على أى شعب مسلم يسقط الظهور ، وليس هناك حال وسط يجتمع فيها الظهور مع أى نوع من أنواع السيطرة ولو كانت اسمية .

وقفة مع الأستاذ الكعاك

قال الأستاذ عثمان الكعاك فى كتابه القيم « موجز التاريخ العام للجزائر » صفحة ٢٠٦ ما يلى :

« أى حظ يكون للأدب العربى فى بلاد سكانها بربر وملوكها عجم » .

عبارة براقة تستهوى القارىء لأول مرة ويراها حقيقة جديرة بالتصديق ، ويؤكدها فى نظر الباحث أنه بالفعل لا يجد عند الإباضية ـ سواء فى عهد الدولة الرستمية أو فيما بعدها ـ ما ينشده من الأدب .

فلا مقطوعات فى وصف الخمر ولا مطولات فى مدح الملوك ولا قصص دعارة تروى عن مجالس السمر .

فلماذا هذا ؟ ألأن السكان بربر والملوك عجم ؟ وهل البربر والعجم لا يقولون الشعر ؟ وهل كانت الثروة الأدبية عند العرب أكثر منها عند العجم ؟ .

لاشك أن اللغة ـ أية لغة ومنها اللغة العربية ـ أداة تعبير تكشف عما يختلج فى النفوس . وقد امتلك ناحية اللغة العربية عجم وبربر فكتبوا بها الأدب وكتبوا بها الشعر ، وربما كان المستوى الذى بلغه فيها الأعاجم بما فيهم البربر لا يقل عن المستوى الذى بلغه العرب . والشخص الذى يتكلم العربية بطلاقة ويكتب بها بسهولة ـ مهما كان جنسه لا يعجزه أن يقول بها الشعر إذا وجدت عنده الدوافع النفسية لذلك .

ولكى أؤكد هذه الحقيقة أستطيع أن أقول إن الإباضية قد زاولوا

الشعر واستخدموا اللغة العربية بل وطوعوها فى بعض محاولاتهم ، لقد قالوا شعراً جيداً فى الحكم، وقالوا شعراً جيداً فى الرثاء، واستخدموا الشعر فى مجال العلم فنظموا المتون الطويلة فى الشرعيات أصولا وفروعاً، وبلغت الأراجيز عندهم إلى خمسين ألف بيت[1]، وبلغت القصائد الأخرى إلى ثلاثمائة بيت، فهل يرى القارىء الكريم أن الشخص الذى طوّع اللغة العربية بهذه المقدرة فنظم بها مئات الأبيات فى مادة جافة جادة ومصطلحات محددة معينة يعجزه أن ينظم قصيدة فى ميدان الشعر يتغزل فيها بجارية أو يصف فيها عربدة سكران إذا وجدت دوافع ذلك فى نفسه ، وجرت أحاسيسها فى خاطره .

إن الملوك الذين يقول عنهم إنهم عجم ، يقول هو نفسه عن بعضهم إنه فسر القرآن الكريم، ويقول عن آخر أن له مؤلفات ورسائل هامة ويصف ثالثاً بأنه قال شعراً رائعاً فى النصائح والحكم ، ويصف رابعاً بأنه يحب الشعر والأدب وأخبار الماضين. فهؤلاء أربعة من ستة من ملوك الدولة الرستمية الأعاجم . فهل يعجز هذه الطبقة بهذا المستوى أن تقول الشعر أو تكتب فى الأدب باللغة العربية إذا وجدت الدوافع فى أنفسهم؟ لا أحسب أن شخصاً يصدق أن الأعجمى إذا بلغ علمه بالعربية إلى ما بلغ إليه هؤلاء لا يستطيع أن يقول الشعر ، لا لشىء إلا لأنه لم يولد فى نجد أو تهامة . والدليل على صحة هذا أن أفلح أحد هؤلاء الأعاجم عندما وجد الدافع فى نفسه قال شعراً لا يقل جودة عما قاله غيره من الفحول بشهادة الأستاذ عثمان الكعاك نفسه .

ولا شك أن العرب أنفسهم ، العرب الحقيقيين الذين ولدوا فى جزيرة

---

(١) من آخر من نظم فى هذا الباب الشيخ الحاج يوسف بن حمو اليسجنى، فقد نظم أبواب الفقه فى ثمانية وأربعين ألف بيت وهو بربرى إباضى .

العرب ، والذين كانت اللغة العربيـة هى أداة تعبيرهم الوحيـدة وبالسليقة لم يكونوا كلهم شعراء ولم يشتغل منهم بالأدب إلا عدد يسير، أى أنه لم يشتغل منهم بالشعر والأدب إلا أولئك الذين وجدت فى أنفسهم الدوافع .

وبناء على هذا فنحن نرى أن عدم ازدهار الأدب والشعر عند الإباضية عموماً ، وفى عهد الدولة الرستمية خصوصاً، لم يكن صادراً عن عجزهم عن اللغة العربية لأنهم عجم أو بربر .

بل لعل البربر والعجم من الإباضية كانوا متمكنين من اللغة العربية أكثر من غيرهم، أو على الأقل أكثر من كثير من الذين كتبوا بها ونظموا الشعر . ولذلك فيجب أن نبحث عن أسباب عدم ازدهار الأدب عندهم فى غير العجز اللغوى .

لقد قلت إنهم حين وجدت عندهم الدوافع وأرادوا أن يقولوا الشعر فى الحكم والزهديات والرثاء . قالوا وأجادوا وتركوا فى هذا الباب تراثاً قيما على مختلف العصور، فهم متمكنون من الأداة التعبيرية التى هى اللغة العربية وليست هى التى تنقصهم - وإن كانوا عجماً وبربراً - بل إننى أستطيع أن أزعم أن لهم فى العصر الحاضر فى الجزائر مجموعة من الشعراء لا يقل وزنهم عن أمثالهم فى البلاد العربية .

والشاعر الجزائرى الذى كان يقول منافساً لشوقى فى إمارة الشعر عندما اتفق شعراء العربية على بيعته :

نشـأ الأمير مع الأمير منعماً ... لين الرياض يغازل الورقاء
ونشأت مقصوص الجناح معذباً ... أقضى الحياة مضاضة وشقاء

لو ذقت من كاس النعيم صبابة لغدوت أحمل للقريض لواء
إن الحياة على البلاء مصيبة عظمت فيا أرض ابلعى الجبناء

بربرى إباضى إذا تحدث باللغة البربرية لم يكن أقل كفاءة فيها من أبى سهل الفارسى، فما هذا السبب الحقيقى فى فقدان الأدب والشعر عندالدولة الرستمية خصوصاً وعند الإباضية فى المغرب عموماً ؟ .

إن جميع ألوان الثقافة وفنونها لها بيئات لا يمكن أن تعيش إلا فيها ولها دوافع نفسية لا يمكن أن تنبعث إلا منها ، فإذا فقدت البيئة أو فقد الدافع لم تخرج تلك الثقافة أو ذلك الفن إلى الوجود .

ولإيضاح هذه الفكرة أستطيع أن أضرب مثلا قريباً يدركه كل الناس، لقد كان النحت والتصوير من أبرز الفنون التى ازدهرت فى الدول المتحضرة وقد بلغ فيها الرومان والإغريق شأواً قصر عنه الآخرون . فإلى أى مدى استطاع العرب أن يبلغوا فى هذا الميدان ؟ لقد ازدهرت الحضارة فى العصر الإسلامى ولا سيما فى عهد الدولتين الأموية والعباسية وبلغت مرتبة رفيعة فى فن النحت والرسم ؟.. أحسب أن المنصف سوف يجيب بأنه لا شىء . . وهذه هى الحقيقة . وأدوات التعبير فى هذين الفنين إنما هى الإزميل والمطرقة أو الريشة واللون، فهل كانت الدولتان العظيمتان يعوزهما الحصول على مطرقة وإزميل وقطعة من الجبس أو الحجر ؟ أو يعوزهما الحصول على ريشة ولون وسطح يصلح للرسم . فعجزت عن النحت والتصوير لعدم وجود الأداة .

إن من يقول مثل هذا الكلام لا شك أنه يغالط البديهيات . والواقع

أن عدم ازدهار النحت والتصوير فى الدولتين السابقتين إنما هو انعدام البيئة التى تتطلب النحت ويعيش فيها، وتتطلب التصوير ويعيش فيها، ثم عدم وجود الدافع فى نفوس القنانين وعدم إحساسهم به .

ربما أوضح لنا المثال السابق ما نقصده فى الحديث .

إن الأدب والشعر بصفة خاصة لم يجد عند الإباضية بيئة صالحة له يعيش فيها، ولم يجد دافعاً فى نفوس أهله وإحساساً به فلم يكن. ولعل القارىء الكريم يريد أن يعرف صوراً من البيئات التى يعيش فيها الأدب والشعر وأمثلة للدوافع والأحاسيس التى تبعث الشعر من أفواه الشعراء ، فإلى القارىء الكريم ما يلى :

لم يتخذ الملوك العجم كما يقول الأستاذ الكعاك فى الدولة الرستمية مجالس للسمر يطوف فيها الغلمان بالكؤوس المعتقة ، وتغنى فيها الجوارى بالأصوات الساحرة، وتتناجى فيها العيون باللغات الصامتة، وتهتز فيها الخصور والأرداف بالحركات الخليعة الماجنة، وتنطلق فيها كفا الملك إذا لعبت به الخمرة وأخذته النشوة تنشر الدراهم والدنانير دون حساب ، هذه بيئة صالحة يعيش فيها الأدب والشعر ـ والدراهم المنتشرة والخمور المعتصرة ، والخصور غير المتزرة دوافع لتحريك الشعر فى نفس كل متلهف إلى المال أو إلى الجمال أو إلى الجريال ، وكل هذه الأشياء لم تكن فى تلك الدولة التى ملوكها عجم وشعبها بربر . فلم تكن البيئة ولا الدوافع .

وبيئة أخرى صالحة للأدب والشعر لم تكن عند الإباضية البربر والملوك العجم، وذلك أن المجتمع الإباضى المتزمت لم يسمح للمرأة الإباضية أن تنطلق خارج بيتها تغترف الماء من النبع أو تجنى الثمار من الأجنة ، أو تقطف

الزهور من الحدائق ، أو تنشق النسيم العليل بين الزنابق والورود . فيلتقي بها شاب جميل ظريف يذكر لها أنه أحبها من أول نظرة ، وهام بها من أول خطرة ثم يقول وتقول ويومىء وتومىء وتتخلج وتتحرك وتتزايل وتتمايل ثم تتدلل وتتمنع وتنشأ عن ذلك قصة تُحكى ، وأشعار تُروى ، وغزل يستفيض ويحفظ ، هذه بيئة أخرى صالحة للأدب والشعر فيها دوافع للقول لم توجد عند الدولة الرستمية ولا المجتمعات الإباضية فلم يزدهر فيها الأدب ولم ينبع فيها شعر . ولم يسمح المجتمع الإباضى المتزمت للصبية الحسناء أن تنطلق وراء البهم تجرى بها بين مشارف الأجنة وضفاف الأودية ، فيلتقي بها شاب قوى العضلات واضح القماسيم يرعى قطعاناً من الماشية فيلقى إليها بالكلمة الغزلة الرقيقة تستجيب لها أحاسيسها ، ويمتنع فى الأول حياؤها ثم لا يزال حتى يعزف لها فتستجيب وتجلس إلى جانبه يداعبها الأمل ويربطها الغزل وتفصلها النجوى عن عوالم الناس حتى يستفيض خبرها ويبلغ إلى الأهل فتمنع الفتاة عن الخروج ويبدأ الشعر ينطلق من أصدقهما حباً وأكثرهما لوعة . هذه بيئة ودوافع لم يكونا موجودين فى المجتمع الذى وصفه الكعاك بأنه أعجمى بربرى لا يستطيع أن يقول الشعر ولا أن يهتم بالأدب .

إن الملوك الذين وصفهم الأستاذ الكعاك بأنهم أعاجم والذين حكموا الإباضية فى المغرب الإسلامى لم يتخذوا لأنفسهم عروشاً فى قصور محجبة لا يصل إليها عن طريق الحاشية إلا شاكر نعمة حقيقية أو وهمية أو شاعر متكسب يدفع البيت من الشعر بميزانه من الذهب وعلى قدر ما يزداد كذبه على نفسه ويزداد كذبه على الملك الذى يمدحه تزداد قيمة القطعة أو القصيدة الشعرية .

هـذه أيضاً بيئة لم تـكن ، وإنمـا كان أولئك الملوك العجم المساكين يجلسون على الحصر فى المساجد ويتصلون بالناس جميعاً ، ويتلقون مشاكلهم مشافهة ومباشرة .

وهنالك بيئة أخرى أيضاً قد تـكون صالحة للشعر ، وقد يكون فيها دوافع لقوله ولـكنها أيضاً لم تـكن عند هؤلاء الناس فلم يوجد عند الإباضية أوقات من الفراغ يتجمع فيها الناس للهو البرىء أو غير البرىء يتخلون فيه عن الجد والوقار ساعة من ليل أو نهار ، وتنطلق فيها نفوسهم فى عبث مستمر ضاحك لاعب كلعب الأطفال يجد فيه الشعر متنفساً له وتعبيراً عنه .

إنهم كانوا أكثر جدية من كل ذلك .

تلك بعض البيئات التى يزدهر فيها الأدب ويعيش . وهى بيئات لم توجد عند الإباضية ، وحين توجد ينبت فيها الأدب ويقوى ويزدهر — وإذا رجعنا إلى تاريخ الإباضية الطويل فى المغرب الإسلامى بما فيه العهد الرستمى قد نجد قصائد أو مقطوعات من الشعر الرائع ، إما فى وصف الطبيعـة وإما فى ممازحة الإخوان وإما فى الحـكم والنصائح ، ومعنى هذا أنه حيما وجدت البيئة الصالحة لهذا النوع من الشعر نبت ونما وينتج عن كل هذا أن الأدب العربى وبخاصة الشعر لم يزدهر فى الدولة الرستمية وعند الإباضية عموماً ليس لأن سكان بلادهم بربر ، فإن من البربر من قال شعراً لا يقل روعة عما قاله امرؤ القيس والمتنبى وشوقى ونزار . ولا لأن لغتهم عجم ، فإن من العجم من قال شعراً باللغة العربية يعجز عنه أبناء يعرب وقحطان . ولعل الذين اهتموا بالأدب العربى وخدموه خدمة صادقة مثمرة من الأعاجم أكثر ممن خدموه من العرب . ولـكن الشعر والأدب لم يزدهرا فى الدولة الرستمية

وعند الإباضية عموماً لأنه فقد البيئة الصالحة له والدافع الحقيقى الذى يثيره فى نفس الشاعر فيسيل نفثات على لسانه أو قلمه .

ولعل هذه الصورة تشبه من قريب أو من بعيد الحالة التى كان عليها الشعر فى عهد الخلافة الرشيدة لاسيما فى شطرها الأول .

وهذا لا يمنع أن هناك ألواناً من الأدب قد ازدهرت فى تلك الدولة وبلغت شأواً لا يقل عن شأوه فى مثيلاتها من الدول العربية ، ذلك هو الأدب الجدى الذى يتمثل فى الكتب ، والرسائل ، والمواعظ ، والخطب والنصائح ، وفى المدائح النبوية وقصائد الرثاء والإخوانيات وعلى الأخص الحكم والنصائح .

مع الدكتور أحمد مختار عمر

بعد أن كتبت الفصل السابق وقع فى يدى كتاب للدكتور أحمد مختار عمر تحت عنوان : « النشاط الثقافى فى ليبيا » تحدث فيه عن الأدب الإباضى فرأيت أنه يقرر ما أشرت إليه فى الفصل السابق استناداً إلى دراسات أجراها فأحببت أن يطلع القارىء على بعضه ، فقد جاء فيه فى صفحة ١٧٧ ما يلى :

« يدخل تحت هذا العنوان (الأدب) نوعان من المادة ، أولهما : الإنتاج الأدبى من شعر ونثر ، وثانيهما : الدراسات المتعلقة بتاريخ الأدب وتوجيهه ونقده .

أما الإنتاج الأدبى فقد كان وفيراً سواء فى مادته الشعرية أو النثرية وإن كانت فى حدود المادة التى وصلتنا ـ أصغر حجماً وأقل جودة من نظائره فى بعض البلدان العربية الأخرى ـ ونقول فى حدود المادة التى وصلتنا ـ لأن هناك أخباراً وأسماء وإشارات يتناقلها المؤلفون ، وتحويها بطون كتب الأدب تؤكد وجود مادة أخرى كثيرة ضاع بعضها ، وطمر بعضها الآخر داخل خزائن الكتب والمخطوطات .

وحتى نبتعد عن التعميمات ما أمكن . رأينا أن نفصل الإنتاج الأدبى للإباضيين عن غيره لما للأول من سمات خاصة تميزه ، ولهذا قسمنا البحث إلى قسمين رئيسيين وهما :

١ - الأدب فى ظل الإباضيين .

٢ — الأدب فى سائر أنحاء ليبيا » .

ويقول فى صفحة ١٧٨ ما يلى :

« أما النثر بنوعيه ، والشعر عند الإباضيين فسنتناول كلا منه فى جملة واحدة . نظراً لندرة المادة التى تحت أيدينا وعدم إسعاف المراجع لنا بقدر يسمح بالتحليل والتتبع التاريخى والمقارنة واستخلاص النتائج » .

ويقول فى نفس الصفحة :

« الأدب فى ظل الإباضيين : معلوماتنا عن هذا الأدب جد ضئيلة لقلة المراجع التى حفظت نماذج منه من ناحية، ولصعوبة الحصول على كثير من هذه المراجع من ناحية ثانية ، وبعدم اعتناء الإباضيين بوجه عام بتسجيل أدبهم من ناحية ثالثة — فيما عدا ما له غرض دينى أو سياسى أو تعليمى .

ومع ذلك يمكننا أن نقول إن جانب النثر عند الإباضيين قد فاق جانب الشعر، وإنه جاء إلينا فى شكل خطب أو وصايا أو رسائل ديوانية أو أقاصيص تعليمية أو حكم أو أجوبة » .

وقد أورد المؤلف أمثلة للنثر ما يلى :

١ — خطبة أبى الخطاب المعافرى فى أهالى طرابلس يحثهم على الجهاد .

٢ — خطبة من الخطب الجمعية فى الدولة الرستمية .

٣ — وصية السمح عامل الإمام عبد الوهاب حين حضرته الوفاة .

٤ — وصية الجدة ثابر كانت للعزابة .

٥ — وصية أبى محمد اللواتى لقومه .

٦ — رسالة أبى منصور إلياس إلى أبى العباس بن طولون .

٧ — رسالة الإمام أفلح إلى نفاث بن نصر .

٨ — رسالة الإمام عبد الوهاب إلى أهل طرابلس .

٩ — قصة أمانى النسوة الثلاث .

١٠ — حكم لأبى عبد الله محمد بن بكر .

١١ ـ نصيحة أبى إسحاق الاشارنى .

١٢ ـ نصيحة أبى الخير ثوزين الزواغى .

وبعد أن أورد النصوص السابقة علق عليها بما يراه ، ثم انتقل إلى الحديث عن الشعر فقال فى صفحة ١٨٨ مايلى :

« على الرغم من قلة ما تحت أيدينا من الشعر الإباضى فإن الشواهد تدل على أنه كان هناك شعراء إباضيون كبار ، وأنه كان من حكام الإباضية من يتذوقون الشعر ويجازون عليه ، وأن هناك من الشعراء الأجانب من قصدوهم طلباً للعطاء ، وقد ظهر ذلك وبشكل واضح تحت حكم الدولة الرستمية التى عرف عنها احتضانها للعلم وتشجيعها للأدب ، وعرف عن حكامها الشغف بالبحث والاطلاع والتأليف . ومن الشعر الإباضى الذى وصلنا ما يلى :

١ ـ قصيدة للإمام أفلح وتشطير للشيخ على بن أحمد العمانى لها .

٢ ـ قصيدة أبى يعقوب يوسف بن إبراهيم فى رثاء أبى سليمان أيوب ابن إسماعيل .

٣ ـ نماذج كثيرة من شعر أبى نصر ونثره .

٤ ـ نموذج من شعر أبى طاهر إسماعيل الجيطالى .

٥ ـ نموذج من شعر أبى عبد الله محمد بن زكرياء البارونى » .

وقد ناقش كل نص من النصوص السابقة ونقده وعلق عليه ، ومما جاء عن النص الأول: « أما قصيدة الإمام أفلح فتكشف عن شاعرية صاحبها ، وإن كان يغلب عليها الطابع التقريرى الوعظى » . « فعلى الرغم من هدفه التهذيبى التعليمى ، فقد وضع فى صورة خيالية معبرة ، جعلته يقف على

قدم المساواة مع أبيات الحكمة المشهورة عند العرب ويدانيه فى الجودة قوله :

ولا تكن جامعاً للصحف تخزنها كالعير يحمل بين العير أسفاراً »

ومما جاء عن النص الثانى : « وأما قصيدة أبى يعقوب يوسف بن إبراهيم فى الرثاء فهى أقرب إلى الشعر الخالص من كثير من النماذج الشعرية التى عثرنا عليها » .

وقال عن النص الثالث : « وأما أبيات أبى نصر فتح بن نوح فلعلها ـ فى معظمها ـ أقرب ما وصلنا من شعر الإباضية إلى روح الشعر وجوهره » . «ورغم أن بقية ما وصلنا من شعره فى المواعظ والحكم فأنت تحس أثناء قراءته بقوة عارضة الشاعر وحسن اختياره لألفاظه وتحس فى بعضها بعاطفة صادقة وشاعرية متدفقة » . « فيه إلى جانب ذلك حديث صريح عن مفهوم الشعر عند الإباضية وصفات الفخر عندهم وهى :

الشغف بطلب العلم ، وملازمة الأخيار ، وعدم الركون إلى اللذات ، أو المشاركة فى مغامرات الصبا ولهو الشباب » .

ويقول عن النص الرابع ص٢٠٥ مايلى : «وأما أبيات الجيطالى الثلاثة فهى من أبيات الحكمة العادية وهى تعالج موضوعات أكثر الشعراء والحكماء فى معالجته . ولا أظن أن هناك جديداً فى هذه الأبيات يستحق الوقوف عنده» .

ويقول عن النص الخامس فى صفحة ٢٠٥ ما يلى :

« وأما قصيدة البارونى فتعد فى جزئها الأول ١٤ بيتاً أقرب إلى الشعر منها إلى النظم ، أما سائر الأبيات فأقرب إلى منظومات العلوم وإن لم تخل

من عاطفة فى بعض الأحيان . وتعد الأبيات الأربعة عشرة الأولى ذات أهمية خاصة لأنها تكشف فى وضوح عن موقف الإباضية من الشعر وعدم تزحيمهم إلا بالنوع الجاد منه الذى يحقق غاية أو يخدم هدفاً وهى تنحى باللائمة على الشعراء الذين قضوا شبابهم فى اللهو واللعب ومعاقرة الخمر وملاحقة النساء ، وتعرض بالشعراء المجّان ، وتهاجم أولئك الذين أفنوا عمرهم فى الجرى وراء حبهم وأولئك المداحين المتكسبين بالشعر أو الهجائين المقذعين ، كما تهاجم أولئك الذين اشتهروا بالفخر بأنسابهم وقبائلهم لأن موضع الفخر الحقيقى هو العمل الصالح والانتماء إلى أهل الدين والصواب ولعل هـذه الأبيات تكشف لنا عن حقيقة هامة هى :

إنه لا مكان لمعظم أغراض الشعر عند الإباضيين وإنهم لم يكونوا يرتاحون للأغراض التى يجيد فيها الشعراء عادة مثل الغزل والفخر والهجاء والمدح . ووصف مجالس الخمر ورحلات الصيد ، وإن معظم شعرهم كان من النوع الدينى وشعر الحكمة بالإضافة إلى بعض الموضوعات التى لا تخدش تقاليدهم مثل الرثاء والحرب والوصف والفخر بالعمل الصالح والإخلاص فى العقيدة » .

ويقول فى صفحة ٢٠٨ ما يلى :

« إن الشعر الإباضى لم تتح له فرصة النهوض ، ولم يهيأ له الجو المناسب ليزدهر ، كما يبدو من ناحية أخرى أن اهتمام الإباضيين بتسجيل شـعر شعرائهم وروايته ، وحفظه كان ضئيلا للغاية حتى تسبب فى فقد كثير من نماذجه وعبثت الأيام به » .

بنو مصعب والغربة

إن بنى مصعب — فى العهد الثالث من تاريخهم الإسلامى — بدأوا يخرجون من القوقعة ، ويخرقون السياج الذى ضربته الطبيعة حولهم من جبال حاصرة مانعة ثم ينطلقون إلى الأنحاء المختلفة من القطر الجزائرى يحترفون التجارة .

كان انطلاقهم فى مبدأ الأمر على نطاق ضيق ـ يشبه أن يكون تلمساً لمنفذ ، واستطلاعاً لمجهول ـ وكان يتم على سبيل الطموح الفردى ـ والتجربة الشخصية . فنجحت التجربة فى الميدان الاقتصادى نجاحاً باهراً بالنسبة إليهم . وبالنسبة للحركة الاقتصادية العامة للجزائر ، وبالنسبة للدولة التركية الحاكمة فى ذلك الحين ، لأن مداخيلها ازدادت بنسبة ملحوظة .

وأصبح مع الأيام ـ كل الشباب المصعبى يتطلع إلى اليوم الذى يفارق فيه المسحاة والدلو والمنجل . ويغادر هذا المجتمع الذى يرى أنه يحيا فيه حياة رتيبة مكررة يومية . إلى بلاد (القل) كما يسمونها ليعود بعد سنوات من الغربة منتفخ الجيوب بما كسبه من عمله فى التجارة خارج وطنه ، فيجد مواطنيه قد التفوا حوله يعاملونه بكل تكريم واحترام وإعزاز .

ترمقه عيونهم بالإعجاب ، وتصغى إليه آذانهم متشوقة إلى سماع قصة مغامرته الناجحة . وتهفوا إليه قلوبهم بالمحبة والعطف والشوق .

وعندما تزايدت هـــذه الرغبة الجامحة فى الانطلاق خارج الوطن ، وأصبح شباب كل قرية يتنافسون عليها ، ويتسللون من البلاد باستمرار فصارت الأيدى القوية الأمينة تنقص يوماً عن يوم فى الوطن بمقدار ما

تتزايد فى غيره . فخشى المفكرون والمصلحون أن ينتج عن ذلك عدد من المضار والمشاكل تلحق بالوطن نفسه . فسارعوا إلى دراسة الموضوع بجملته، وإلى التعرف على المشاكل المتوقعة التى سوف تنجم عن هذه الحركة فاتخذوا لها الحلول المناسبة قبل أن تخرج من أيديهم ، فتستعصى عليهم فلا يستطيعون وقفها ، ولا الحد من آثارها .

ولعلنا نستطيع أن نعرض بعض تلك التخوفات أو المشاكل التى كانوا يخافون منها على وطنهم وأمتهم ودينهم إذا هم أطلقوا الحبل على الغارب وسمحوا لكل راغب فى الهجرة أن يهاجر ، وتركوا موضوع الاغتراب من أجل الاكتساب هكذا دون قيد أو شرط ودون رعاية أو تنظيم فيما يلى :

١ ـ الانحراف بسبب الفشل :

من الناس من يحمله الطموح فيغترب وينجح ، ومنهم من يحمله الطموح ويتوقع الربح الوفير بالعمل السهل فيخفق ويعز عليه أن يعود إلى وطنه بدون مال ، فيحمله الفشل على الانحراف عن الاكتساب الشريف إلى الاكتساب غير الشريف . وبذلك يكون نكبة على البلاد التى هاجر إليها ويعيش فيها كما يكون نكبة أيضاً على بلده الذى سافر منه ، ويصبح وصمة عار على سمعة وطنه النقية .

٢ ـ الاغتراب تهرباً من العمل :

من الناس من يمل أعمال الزراعة الشاقة ، ويضيق من شظف العيش ومن حياة التقشف التى يحياها فى وطنه . فيسعى لأن يتخلص من زراعته بأى طريقة، ثم يأخذ ما تحصل لديه وينطلق إلى مدينة من تلك المدن فى (القل)

وليس هؤلاء مؤهلين ـ طبيعياً ـ لممارسة التجارة فيفشل بعضهم ويضيع منهم ما جمعوه ثم يضطرون إلى العودة وهم يجرون أذيال الخيبة معهم ، فيجدون بالإضافة إلى الصدمة النفسية ـ أن ما كانوا يعتمدون عليه من زراعة قد انتقل إلى أيدٍ أخرى حين باعوه أو سلموه لغيرهم ، وقد يجدونه فى انتظارهم ولكن عوامل الإهمال فى مدة الغربة قد أثرت عليه بحيث أصبح محتاجاً إلى نفقات تفوق ما يغله لعدة سنوات . وهكذا تصبح مشكلة أولئك الناس بعد رجوعهم من تجربتهم الفاشلة تساوى مشكلتهم فى ديار الغربة وقد تفوقها .

٣ ـ استيطان بلاد الغربة طلباً لرفاهية العيش :

قد تروق الحياة فى ديار الغربة لمن نجحت أعمالهم فيها ، فيتخذون الإقامة الدائمة ويهجرون وطنهم بالتدريج ، ويكثر عدد هذا النوع من الناس حتى يصبح الاغتراب ـ ثم اتخاذ وسائل الإقامة ثم الإقامة ـ كأنها معاول تخريب للوطن ولن يمضى على تلك الحال وقت طويل حتى يصبح وطنهم خبراً من أخبار التاريخ ، أو قصة من قصص الأسمار . كما وقع بالفعل لبلدان كثيرة وأقرب مثل على ذلك مدينة « سدراتة » .

٤ ـ تناقص الإنتاج بنقصان اليد العاملة :

لا شك أن الإنتاج فى الوطن ولاسيما الزراعى منه ينقص بمقدار الأيدى القوية العاملة التى تتخلى عنه وإذا سمح لكل يد عاملة بالهجرة فإنه يأتى يوم لا يوجد فيه عامل ، وذلك معنى من معانى الخراب .

٥ ـ الانحلال الدينى والخلقى :

أسباب ارتكاب المعصية ـ بقسميها : الفعلى والتَّركى ـ وأسباب

الانحلال الخلقى ميسورة ومتوفرة فى المدن أكثر مما هى فى الأرياف . فإذا تُرك الشباب نفسه بين مغريات الحياة تورط فى كثير من الرذائل. واستسهل ارتكاب بعض المعاصى . وربما اعتادها أو اعتاد بعضها فأصبح لا يستطيع أن يتخلى عنها كما يقع لمن يتورط فى شرب الدخان أو شرب الخمر ، أو مزاولة القمار أو غيرها .

وقد عولجت جميع التخوفات والمشاكل السابقة بنوعين من التنظيم أولهما بمثابة العلاج الوقائى. الغرض منه الحيلولة دون وقوع ما يُخاف منه ودون حدوث المشكلة أو المشاكل المتوقعة. وثانيهما بمثابة العلاج بالدواء والغرض منه المبادرة بالحل المعقول لأول بادرة تظهر من متخوف منه أو مشكلة واقعة. أو حسم المشكلة مهما كان حجمها.

وسوف نحاول فيما يلى أن نعرض كل واحدة منهما بإيجاز فيما يلى :

(١) خلايا النحل :

لا شك أن القارىء الكريم يستغرب هذا العنوان فى هذا الموضوع من الكتاب وله الحق فى ذلك . فنحن هنا لا نتحدث عن النحل ولا عسل النحل ، وإنما نتحدث عن البشر . ولكننى وجدت مشابهة ظاهرة بين خلايا النحل وما سأتحدث عنه فاستعرت العنوان .

أقصد بخلايا النحل فى هذا المقام تلك المتاجر التى تعج بالحركة فى أوقات الحركة وبالهدوء فى أوقات الهدوء حسب تنظيم دقيق ، والتى يوجد فى كل متجر منها عدد من العمال يسمونهم (صبياعاً) يشرف عليه عدد من أرباب العمل تحت رئاسة واحد منهم قد يكون أكبرهم سناً ولكنه لابد أن يكون

أكثرهم خبرة وأقدمهم فى ميدان العمل وفى إدارة المتجر وأعلمهم بتقلبات أحوال الاقتصاد فى البلد والعالم .

هذا المتجر الذى تتحرك فيه مجموعة بشرية بنظام دقيق وقيادة واعية . قد روعى أن يكون فيه جميع ما ينبغى لهذه المجموعة البشرية ليحفظ عليها دينها ودنياها . وليصلح بها وطنيها : العام والخاص . فهو فى الحقيقة خلية بشرية تجمع فيها المال والدين والخلق وقد حرص مصمموها أن يحددوا لأفرادها مراتع المال ومراتع الدين ومراتع الخلق .

لقد راعى بنو مصعب أن تكون متاجرهم ومصانعهم فى كل مدينة من مدن الجزائر وغيرها ـ خارج بلدهم ـ خلية من هذا النوع ومن مجموع الخلايا أو المتاجر فى المدينة الواحدة يتكون المغتربون الميزابيون فى ذلك البلد ؛ يربط بينهم جميعاً تنظيم عمى يشرف عليه (كبار الحرفة) ومسجد يؤدون فيه الصلاة فى ثلاثة أوقات على الأقل وهى صلاة العصر وصلاة العشاء وصلاة الفجر ويعقب هذه الصلوات أو بعضها فى أحيان كثيرة دروس أو مواعظ أو نصائح وإرشادات .

وقاعة فسيحة للمداولة فى مهمات القضايا .

وقد بنوا خلاياهم تلك أو متاجرهم ومصانعهم على الأسس الآتية :

* بناء التجارة والصناعة على المشاركة حتى يكون لكل محل ولكل خلية عدد من المالكين . ذلك يسهل عليهم أن يتناوبوا الإشراف عليها حتى يسهل على كل منهم أن يأخذ وقتاً كافياً للاستقرار فى الوطن ، ففى الوقت الذى يشرف فيه بعض التجار على أعمالهم فى القل تتاح الفرصة لشريكه

أو شركائه أن يكونوا فى إجازة يستمتعون بها فى وطنهم ويشرفون فيها على أعمالهم فى الوطن، ويتخذون لها من التنظيمات ما يكفى لسيرها فترة أخرى من الزمن . على أن الفرص التى تتاح لهؤلاء الشركاء تطول أو تقصر بحسب ضخامة الأعمال وعدد الشركاء .

* الاستكثار من الصناع بحيث يكون فى كل خلية (محل تجارى أو صناعى) فائض عن عدد العمال المحتاج إليه فعلا ، وذلك ليتمكن المحل من الاستغناء عن بعضهم فى فترات من السنة حتى يستطيع بعض أولئك العمال أن يقضى إجازة فى بلده ، وأغلب هؤلاء الصناع يكونون من الشباب الصغير وفيهم غير المتزوجين وبعضهم دون المراهقة فهم يحتاجون إلى إجازات قصيرة ولكنها متقاربة لإطفاء شوقهم وشوق أسرهم إليهم ومساعدة أسرهم فى أعمالهم أثناء إجازاتهم القصيرة ثم يعودون لمزاولة أعمالهم فى نشاطهم التجارى وهم أكثر حيوية وأشد إقبالا عليها، ومن كانت لهم دراسة منهم فهو يعود ليستمر فى دراسته .

* يحرص أغلب أصحاب المتاجر أن يصطحبوا معهم أطفالهم أو أطفال غيرهم — عندما يكونون غير مرتبطين بالدراسة — إلى متاجرهم فى ديار الغربة وهم يقصدون بذلك — بالإضافة إلى تغيير رتابة الحياة عن أولئك الأطفال — إلى تدريبهم على الأعمال التجارية وتنمية ملكة الاقتصاد فيهم ، وتعويدهم على حياة المغامرة ، والحياة فى الغربة . وعلى الاعتماد على النفس فى الحصول على مطالب الحياة وأهم من كل ذلك تكوين جيل واع يخلف الجيل الذى سبقه فى إدارة الأعمال . وقل أن تجد مصعبياً واحداً فى أى مجال من مجالات الحياة لم يزاول العمل فى التجارة فى مرحلة من

مراحل عمره ، ولو كان ذلك فى السنوات الوسطى من طفولته ، وهو أثناء عمله فى التجارة لا بد أن يتلقى أجراً عن عمله فيها حسبما يقدره (جماعة الحرفة) كما يقدرون أجور العمال المستديمين الكبار .

وبذلك تسلسل فى أجيالهم حب التجارة والمغامرة فيها ، وأصبحت الغربة عندهم لازماً من لوازم الحياة لا تستقيم الحياة بدونها ، ولا يمكن أن يتكون الرجل على النمط الذى يريدونه لأجيالهم إلا إذا أخذ قسطه من حياة الاغتراب وجرب قدرته على الحركة فى إطار أوسع من إطار بلد واحد ضيق محدود ، وبهذا الأسلوب من التربية العملية الموجهة المنظمة ، فإن الحياة لا تضيق على ميزابى وإنه كفيل أن يشق طريقاً لحياة شريفة ونظيفة ثم مريحة .

(ب) النقابات المهنية :

وهو التنظيم الذى وضعوه ليضمن لهم نجاح المغتربين فى أعمالهم بتهيئة ظروف مناسبة تساعد على المحافظة على الدين وعلى الاحتفاظ بالخلق القويم ، وعلى تنظيم عملية الاغتراب تنظيما يكفل للشعب مكاسبه ويجنبه المشاكل والأضرار .

هذا التنظيم الذى وضعت له (عنوان النقابات المهنية) فى هذا الفصل لم يكن فى واقعه نقابات ، فإن ذلك العهد لم يعرف بعد نظام النقابات .

ولكن بنى مصعب حين اضطر أبناؤهم أن ينطلقوا خارج بلادهم — بأعداد وافرة — خشوا عليهم من الضياع فى زحمة الحياة وحرصوا أن يكون لهم فى كل بلد فيه جالية من بنى مصعب — هيئة من أهل الخبرة والرأى والصلاح تشرف على أحوال الجالية من جميع نواحيها .

ولعل أستاذنا الشيخ باكلى عبد الرحمن حفظه الله ورعاه أعرف بالموضوع وأدق تعبيراً . فإلى القارىء الكريم ما قاله فى إحدى إجاباته عن أسئلتى فى الموضوع . قال :

« وللأخذ بتلابيب هذه الحركة الواسعة كونوا فى المراكز الرئيسية جماعة أو جامعة تدعى (جماعة الحرفة) لها الكلمة المسموعة لدى السلطة الحاكمة هى أشبه بالنقابة اليوم . تفض المشاكل التى تقع بين العمال ومستخدميهم ، تقدر الأجور ، توجد العمل للعاطلين ، ترجع المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا إلى وطنهم ، وقد بلغ بها الأمر أحياناً أن تطرد الكسالى المتسكعين المتهتكين الذين يسوّدون وجه الأمة على يد السلطة التى لا تتردد فى تسويغ ما ارتأته صالحاً بهم .

اتخذوا لهم فى كل بلدة تعتبر كمركز للحركة الاقتصادية من البلدان التى يكثر عليها توارد التجار الميزابيين إما داراً لنزول المسافرين الميزابيين من الإباضية مجاناً يطلق عليها « دار العرش » وفيها قاعة للصلاة ومجهزة بالمرافق ووسائل الطهارة وعليها قيمّ وطباخ فى آن واحد يغنيهم فى أكلهم عن الاحتياج إلى الخارج . وإما مسجداً للصلاة وربما كان فى عمارة ذات شقق لنزول المسافرين الميزابيين من الإباضية ، ومقبرة لدفن موتاهم (محصنة ومحروسة) فيها مكان فسيح لاجتماعاتهم العامة ، لاسيما فى الأعياد والمواسم ، ولقد أضافوا إلى كل ذلك فى هذا العهد الأخير مدرسة بكل بلدة تكثر فيها ناشئتهم . ولو ذهبنا نعد المساجد وديار العرش والمقابر والمدارس التى أنشأوها لبلغت العشرات ، على أنهم لم يقتصروا على الجزائر بل أبعدوا النجعة إلى القطر التونسى فكان لهم فيها مثل هذا النظام . وإلى المغرب وحتى إلى فرنسا .

إذ نشطت فيها حركة التجار الميزابيين فأنشأوا مراكز تجارية معتبرة ، بله أفواج العاملين منهم فى شتى الميادين الاقتصادية وسوف لا يلبثون — إن شاء الله — أن يتخذوا لهم فى المغرب وفى فرنسا[1] ديارا على غرار مالهم فى الجزائر وتونس . وما ذلك على همتهم ببعيد . بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك إلى الأماكن المقدسة كجدة ، ومكة ، ومنى ، والمدينة ، فكان لهم فى كل منها دار رحبة تسع المئات ، تأوى حجيجهم ، فلا يتعرضون للإهمال والإهانة كما يتعرض كثير غيرهم فى مواسم الحج ، تامة المرافق التى تيسر العبادة وتضمن الراحة .

ولقد أكبر جيرانهم فيهم هذه الهمة العالية والنظام المحكم الذى أكسبهم — بل أكسب الجزائر جمعاء — إعجاب الطوائف الإسلامية بأسرها. وما كانوا يستطيعون بلوغ هذه الأهداف لولا تعاونهم وتضامنهم وبذل محسنيهم بسخاء فى هذه الميادين المشرفة . ألهم اللهم الأمة المحافظة على دينها ووحدتها وشرفها .

هذا وقد كان للإباضيين فى عاصمة الجزائر — على الأخص — التى أخذوا يهاجرون إليها أول الأمر للاكتساب والاحتراف مكانة لا تنكر ، ونظراً لمكانتهم فى عين الدولة التركية فقد خيرتهم[2] فى المهن التى يودون احترافها

---

(١) لقد تحققت هذه الأمنية فأصبحت لهم فى باريس دار رحبة فيها قاعة فسيحة للصلاة والاجتماعات وعدد من الغرف لنزول الأضياف مجهزة جميعا بكل المرافق .

(٢) عندما نسفوا برج (بوليلة) الذى أقامه الإسبان لضرب مدينة الجزائر أراد الداى أو الوالى مكافأتهم على عملهم البطولى فخيرهم فى المهن التى يرغبون أن تكون لهم بالأولوية فطلبوا منه استمرار تأمين تجارتهم حسب المعاهدة التى بينهم وطلبوا احتكار قصابة الجزائر لهم وأولوية إنشاء الحمامات . راجع ان شئت زيادة فى التفصيل فصل « الإباضية والجهاد فى سبيل الله » .

فاختاروا أسلمها تبعة وإن كان لها خطرها فى نظر الدين كالقصابة مثلا ، لهذا أعطى لهم امتياز مذبحة العاصمة يشرفون عليها ويتولون هم تعيين الذباحين فيها ورفض من لا يليق منهم لذلك ودام لهم هذا الامتياز إلى عهدنا الأخير » .

(ج) تحديد مجالات العمل :

كان من أهم نقاط التنظيم الحرفى الذى اتبعه بنو مصعب فى توجيه أبنائهم فى بلاد الغربة هو تحديد مجالات العمل ، فلم يسمحوا للإباضى المغترب أن يزاول فى ديار الغربة عملا يدر عليه كسباً كيفما كان ، وإنما حددوا مجالات العمل بناء على فلسفة انبنى عليها كل تخطيطهم لحياتهم فى ديار الغربة فحرصوا أن تكون تلك المجالات مما يتيسر فيه العمل الجماعى ، أى أنه يقوم على تعاون مجموعة من الناس تسيرهم أنظمة ثابتة ، وبأن تتوفر فى ذلك المجال صورة للبيئة التى كانوا يعيشون عليها فى بلدانهم وأن تكون تحت الإشراف المستديم . وأن تكون بعيدة عن تناول ما يحرم ، وأن تكون من طبيعتها تدعو إلى التجمع والتكتل ، وأن تكون مما يتيسر فيه تنظيم الوقت . فحددوا العمل عندهم فى ثلاث مجالات : التجارة بالدرجة الأولى ثم الصناعة ثم الحمامات ، واحتكروا لأنفسهم القصابة المركزية فى الجزائر العاصمة . ولم يسمحوا لأبنائهم بالعمل فى الزراعة خارج وطنهم سواء أكانت بامتلاك المزارع أو بالعمل عند المزارعين أو المعمرين ، ولم يسمحوا لهم أيضاً أن يقوموا بالأعمال البدنية فى المنشآت أو الموانى أو غير ذلك من المجالات الكثيرة التى يجد فيها الأفراد مجالا للكسب ونظرتهم فى هذا ـ رغم سوء فهم بعض الناس لها واعتقادهم أن الإباضية يحتقرون أنواعاً من العمل البدنى ـ لأنهم يحرصون بالدرجة الأولى على دينهم وبالدرجة الثانية على

وطنهم ، ولا يسمحون أبداً لأى فرد أو أى عمل أن يؤثر على أحدهما ولو أطلق العنان للناس يشتغلون كما يشاءون ـ وأنى يجدون العمل ـ لصعب الاتصال بهم وتجميعهم فانفرط عقدهم وتورطوا فى سلوك يبعدهم عن أوطانهم فهجروها . ولو سُمح ـ لاسيما لأغنيائهم ـ بالاشتغال بالزراعة لاستطاعوا أن يملكوا خارج بلادهم وينجحوا فى ذلك ثم ينتقلون إليها ويكون ذلك من أسباب القضاء على وطنهم . وهكذا استعرضوا جميع مجالات العمل فلم يجدوا فى تلك المجالات كلها ما يوافقهم غير تلك المجالات التى يستطيعون أن يُكوِّنوا فيها خلايا خاضعة للتنظيم فيوجه الشاب منهم إلى التجارة ، فإذا حال دون ذلك أسباب وجه إلى الصناعة فإذا حال دون ذلك حائل ـ وهذا الحائل لا يكون إلا من قبل الشخص نفسه بأن كان مستواه الفكرى لا يساعده على احتراف التجارة والصناعة ويكون ممن ليس له مورد كاف فى وطنه ـ فيوجه إلى العمل فى حمام وذلك لأن الحمام لا يحتاج إلا إلى صحة وطاعة وانضباط . والحمام نفسه يسير بنظام دور التجارة أى أنه على نمط الخلايا فى التجارة أو الصناعة . يتعاون فيه على العمل مجموعة من الناس منهم شركاء يتعاقبون على إدارة المحل ، ومنهم عمال يتناوبون القيام بأعماله ومهامه . ويقوم كل حمام مقام متجر كبير يحتوى على عدد من الصناع . فهو لا يختلف من وجهة نظرهم عن المتجر أو المصنع إلا فى التوقيت .

أما الحصول على امتياز قصابة الجزائر أو احتكارهم لها دون غيرهم فالدافع إليها دافع دينى محض . فهم قد لاحظوا أن بعض القصابين لا يحسنون الذبح أو هم يستخفون بعملية الذبح فخشوا أن يُطعموا عن غير قصد ماحرم الله بسبب سوء الذكاة ، فطلبوا احتكارهم لها وتم لهم ذلك ، وهم لا يتولون بيع اللحوم وإنما كل مالديهم هو الإشراف على المركز الرئيسى وتسييره

وإسناد عملية الذبح لمن يحسنها منهم أو من غيرهم . وتعتبر هذه المجموعة من الناس أيضاً خلية كخلايا التجارة والصناعة والحمامات تتوفر فيها جميع الشروط المطلوبة لهم مما أشرنا إليه من قبل .

(د) ملء الفراغ :

يخاف بنو مصعب على أبنائهم من الفراغ أكثر مما يخافون من أى شيء آخر ولذلك فقد كانوا يحرصون أن يملأوا أوقات أبنائهم بتنظيمات يسلم بعضها إلى بعض . وأى فراغ من أحدهم يعنى إحلالا بإحـــدى تلك التنظيمات . وتبدأ تنظيماتهم بوجوب الاستيقاظ مبكراً لأداء صلاة الفجر فى وقتها مع الجماعة فى الغالب ، ثم تحضير مواد الإفطار ثم الإفطار ثم تفتح أبواب المحال للعمل إلى وقت الظهر حيث تبدأ فترة الغذاء ، ثم صلاة الظهر ثم راحة القيلولة وهى إجبارية ، وقد تُقدَّم راحة القيلولة على صلاة الظهر ، ولا يشترط فى صلاة الظهر أن تكون فى المسجد وإنما لمن شاء منهم أن يصليها فى محله صلاة جماعة أو صلاة فذ . وقبل العصر يستأنف النشاط ويستمر العمل إلى قرابة وقت العشاء لا يتخلل ذلك غير صلاة العصر وصلاة المغرب ، وقبل صلاة العشاء يبدأ الاستعداد للصلاة ثم تُصلى صلاة العشاء فى المسجد وقد يعقبها درس أو موعظة أو نصيحة من أحد الناس يفترق الناس بعدها إلى محالهم لتناول العشاء ومناقشة نتائج العمل فى اليوم الماضى وعرض مطالب اليوم المقبل ، يشترك فى المناقشة رب العمل الذى يديره وأكثر العمال الموجودين فى المحل . وقد تأخذ المناقشة جزءاً كبيراً من الوقت يجد أفراد الخلية أنفسهم بعدها تميل إلى النوم فيأوون إلى مضاجعهم ليقوموا مبكرين لاستئناف نشاطهم ، هذه هى الصورة الغالبة عليهم وقد تختلف الطريقة فى بعض البلدان ولكنها كلها تخطط على عدم تمكين الفراغ من نفوس أبنائهم .

أوقاتهم مقسمة بين نشاط فى مجال الحرفة ، أو فى العبـــادة أو فى مجال الاستفادة ، أو فى مجال الاستراحة البدنية المنظمة والمقدرة بالأسلوب الذى يتناسب مع المطالب الجسدية للراحة .

(هـ) التوجيه والرقابة والمتابعة :

التوجيه والرقابة والمتابعة ثلاثة خيوط يرتبط بها أى فرد من بنى مصعب فى أى بلد من بلدان عملهم داخل وطنهم وخارج وطنهم . وفى خارج وطنهم فإنه بمجرد مايصل أى فرد من أفرادهم إلى أى بلد ليعمل فيه فإن أول ما يُقدم إليه إنما هو توضيح خط السير ثم النصائح والتوجيهات . تتولى ذلك هيئة (كبار الحرفة) أو صاحب المحل . بعد ذلك تستمر مراقبته ومتابعته فى مسيرته الطويلة ، فإذا خيف عليه انحراف أو بدرت منه بوادر تدل على ذلك استدعته هيئة (كبار الحرفة) وحاسبته على تصرفاته وقدمت له التوجيهات اللازمة فإن لم تفد فيه هذه المواقف وانحرف فعلا بأن ارتكب بعض مالا ينبغى له جاءت مواقف أخرى سوف نعرض لها فى فقرة تالية .

قد يظن بعض الناس أن تأثير مجلس العزابة لا يتجاوز حدود الوطن ، وأن أولئك الميزابيين المغتربين الذين ابتعدوا عنه مئات الأميال قد خرجوا عن نطاق تصرفه أو على الأقل بعدوا عن إمكانية مراقبته . وهذا الظن ليس صحيحاً لأن مجلس العزابة يعتبر نفسه مسئولا عن حماية المجتمع ـ دينياً وخلقياً واجتماعياً ـ وأن المجتمع يتكون من مجموع أفراده سواء أكان أولئك الأفراد فى وطنهم . أو كانوا خارجه . وأن سلوك أولئك الأفراد ـ سواء أكان لخيراً أو شراً ـ ينعكس على مجتمعهم . ولذلك فإن مجلس العزابة يتابع بوسائله الخاصة جميع الأفراد أينما كانوا . وعندما يتأكد لديه أن أحداً

من أولئك الأفراد يخشى منه الانحراف فإنه يهتم بتوجيهه فإن تجاوز الفرد ذلك إلى المقارفة فإن المجلس يتخذ قراراً آخر سوف نعرض له فى فقرة تالية .

ثم إن مجلس العزابة لا يقتصر على هذه التوجيهات من بعيد أو على التوجيهات الفردية ، وإنما يحرص أن يرسل بأناس ذوى كفاءة لإلقاء الدروس والمواعظ والفتوى فى المشاكل من حين إلى حين ، إما للقيام بجولة استقصائية أو جولة جهوية أو جولة إلى مدن محدودة ثم يتعاقب المرشدون على هذه الرحلات فيرجعون بحصيلة من المعلومات والبيانات والتوصيات . كما أنهم يطلعون على سلوك الناس وأسلوبهم فى المعاملة . فيعالجون منها ما يقوون على علاجه ويحملون غيره ليعرضوه على مجلس العزابة .

ثانياً ـ العلاج بالدواء ويتضح فى الخطوات الآتية :

(ا) التفسير :

عندما لا تفيد جميع الجهود فى تقويم أحد أبنائهم عن الانحراف ويبدأ فى التورط فى أعمـــال تضر بمصلحته وبسمعة أمته ووطنه فإن أيسر موقف يتخذه معه (جماعة الحرفة) هو إرجاعه إلى وطنه على يد السلطة . وهذا نوع من أنواع الدواء الذى يجرعونه لمن تبدؤه الأمراض الاجتماعية وعندما يعود فإن البيئة والمؤسسات الموجودة هناك كفيلة بشفاءه شفاء كاملا .

(ب) التأديب :

إذا ما ارتكب أحد أفراد الخلية خصلة من خصال الانحراف . كشرب الدخان أو الخمر أو سُمع عنه أنه ارتاد داراً من دور اللهو المحرم

أو ما يشبه ذلك فإن رئيس المحل أو الخلية يقيم له جلسة تأديب قد تقتصر على التوبيخ والتقريع الشديدين لمن وقع منه ذلك أول مرة وأبدى ندمه واستعداده للتوبة والرجوع إلى التزام المسلك القويم ، وقد تصل إلى عقوبة بدنية من الضرب الخفيف ، فإذا لم يجد هذا رفع أمره إلى (جماعة الحرفة) التى قد تحكم عليه بالتعزير فيضرب (١٩) جلدة ، فإذا لم يرتدع بذلك رفع أمره إلى مجلس العزابة فى قريته الأصلية .

(ج) البراءة والهجران :

مجلس العزابة من مكانه فى القرية يتابع جميع أفراد القرية فى أماكن عملهم بوسائله الخاصة المعتمدة وتصله أنباؤهم تباعاً ، فإذا ما ثبت لديه أن أحدهم قد ارتكب ما يخالف أمر الله ونهيه أو خرق ما اتفق عليه المسلمون فإنهم يعلنون البراءة منه ويأمرون بهجرانه وذلك لأن البراءة منه هى العقوبة الوحيدة التى يمكن أن تصل إليه على بُعد المسافة وتُحدث فيه الأثر المطلوب منهـا .

وبمجرد ما يعلن مجلس العزابة فى مسجد القرية هذا الحكم عن شخص ما فإنه سرعان ما يبلغه الحكم القاسى فى مهجره فتتغير معاملة الناس له ، ويحس بالجفاء والغلظة والإعراض عنه فيلحقه فى ذلك الألم الكبير والندم الكثير ، ولا يجد له مناصاً فى غير تصحيح وضعه الاجتماعى بإعلان التوبة مما ارتكب والرجوع إلى الجادة التى ينبغى للمسلم الشريف أن لا يخرج منها. والتعهد بذلك .

وهكذا تجد الفرد منهم وهو فى ديار الغربة قد يكون فى الجزائر أو فى وهران أو فى عنابة ، أو فى تونس ، أو فى فرنسا ، أو غيرها . فتحدثه نفسه

بأن يلم بما يلم به أمثاله فى المجتمعات الأخرى معتمداً على سعة رحمة الله وعفوه حتى إذا استسلم للشيطان فأضعف فى قلبه الخوف من الله . وتغلب على تردده وترجح لديه تحت الإغراء الإقدام على المعصية ، لاح له شبح مجلس العزابة يهدده بحكمه القاسى الذى سوف يصدر عليه متى علم المجلس بصدور المعصية عنه ، فينفلت من مخالب الغريزة ، ويتحرر من براثن الشهوة ، ويفر من المعصية ناجياً بنفسه تاركاً شيطانه يعض بنان الندم على خسارته فى صفقة كاد يكسبها . فإن غلبه الشيطان وسدر فى الغى وأصر على موقفه ولم يبادر إلى إصلاح وضعه فإن مجلس العزابة لا يقف مكتوف الأيدى وإنما له وسائل وأساليب أخرى رادعة ليس هذا مكان تفصيلها .

(د) الفروق الفردية :

طبائع الناس وأخلاقهم ومشاعرهم الدينية تختلف ، ومواقفهم من الخطأ ومن الرجوع عنه أيضاً تختلف ، ولذلك فإن أنواع العلاج السابق لم تكن تطبق هكذا على الجميع كمواد قانونية جافة لا تصرف فيها ولا فهم .

وإنما كانت تنفذ لا سيما من (كبار الحرفة) فى ديار الغربة بعد دراسة وفهم لنفسية الفرد وظروفه وبيئته . ومقدار الصلاح والإصلاح الذى ينتج عنها أو مقدار الضرر الذى قد يحدث بسببها وكذلك درجة استحقاق العقوبة ومقدار تحملها ، ولذلك فأنواع العلاج الذى يقرر للشخص الحيى الخجول الحساس غير أنواع العلاج الذى يستعمل للوقح الجافى الغليظ الطبع .

وحتى عندما تتشابه المخالفة بأن يرتكب شخصان نوعاً واحداً من المعصية وفى ظرف واحد فإنه ليس من الضرورة أن يطبق عليهما نوع واحد من العلاج ، فقد يكتفى بتوبيخ أحدهما توبيخاً طفيفاً فى زاوية منفرداً ، ويلقى

على الثانى درس قاس من التوبيخ والتقريع أمام أفراد الخلية كلها أو أمام الجالية فى مسجد الصلاة ، وذلك تبعاً لأخلاق وسلوك كل منهما وتبعاً أيضاً لما يتمتع به كلاهما من رقة الطبع أو غلظته ، وشفافية الحس أو قتامته ، ودقة الإحساس أو بلادته ، وحدة الذكاء أو بطؤه .

(هـ) الآثار والنتائج :

بمراجعة بسيطة لكلام أستاذنا باكلى — حفظه الله — ولما عرضنا من الفقرات السابقة فى هذا الفصل يتضح لنا ما يلى :

إن الإباضى الجزائرى عندما يجمع ما لديه ثم ينطلق إلى مدينة من مدن الجزائر أو تونس أو حتى فرنسا — بحثاً عن العمل — لا تستقبله الفنادق يأوى إليها ولا تستقبله الشوارع يتسكع فيها يتصفح وجـــوه الزائحات والغاديات ، ولا تستقبله الفئات الضائعة التائهة عن المجتمع تلهث وراء المتعة الرخيصة ، ولا حتى الأصدقاء أو الأقارب من العمال الكادحين يأوى إليهم فى حجرة ضيقة عديمة المرافق ربما يجد لنفسه محلا ، فيضيق عليهم فى مسكنهم وفى معيشتهم ، ويتحمل من أجل ذلك منة طول عمره .

وإنما تستقبله دار نظيفة أعدت خصيصاً لسكناه وسكنى أمثاله بها قاعة لإقامة الصلاة تذكره خمس مرات فى اليوم بواجبه نحو ربه . وهى مزودة بكل المرافق وقد حرص المجتمع أن يكون فى تلك الدار قيّم يسهل على الطارىء الجديد مؤنة الطبخ وجلب مواد الغذاء ، ويتولى مساعدته فى جميع ما يحتاج إليه حتى يستقر فى عمل أو ينتقل إلى بلد آخر . ثم إن هذا الطارىء الجديد على المدينة لا يُترك لنفسه ، مهملا يطرق الأبواب بحثاً عن العمل تتقاذفه ظروف الحياة بين الناس . وإنما تستلمه منذ وصوله هيئة شبه مسئولة فتعرف

منه اتجاهه وخبرته فى أنواع العمل واستعداده لأدائها ومقدار رأس المال إن كان له رأس مال . فإن كان صاحب مال ويريد افتتاح تجارة ، أو مشاركة فيها ، يسرت له ذلك وساعدته عليه وأرشدته إلى النوع الذى يتوقع نجاحه .

وأما إن كان يريد العمل بجده وجهده فإن الهيئة تبحث له عن مكان مناسب فى بعض المجالات المحددة حسما سبق ، والهيئة بطبيعة وجودها ومعايشتها للأوضاع الاقتصادية فى تلك المدينة تعرف جميع الأماكن الشاغرة ونوعية العمال المطلوبين لكل منها فإذا رأت المكان المناسب له وضعته فيه وقدرت له الأجرة المناسبة — فرضاً عليه وعلى رب العمل — وكلما تقدم فى إدراك أسرار المهنة والإجادة فيها تقدم أجره ثم يُضاف الزائد من أجره على نفقاته فيضاف إلى رأس مال المحل حتى يصبح بعد فترة معقولة شريكا فى تجارة ذلك المحل وقد يُفتح له فرع جديد فى جهة أخرى يتولى هو وبعض الشركاء الآخرين إدارته .

وإذا لم يتسع له فى تلك المدينة مجال للعمل اتصلت تلك الهيئة بهيئة أخرى فى بلد آخر حتى ينفتح له مكان فى إحدى المدن فيُنصح بالذهاب إليه لتستقبله نفس الظروف . فينزل فى البيت المعد وتتولاه الأيدى الحانية حتى يلتحق بعمله الجديد وأجره المقرر .

فإذا كان الرجل ممن لا يحتمل الغربة ، أو ممن لا يقدر على العمل لأسباب بدنية أو أسباب فكرية ، أو ممن يريد أن يتهرب من مجتمعه المحافظ ليدخل فى المحيط الواسع فيذوب فى الكثرة ، ويشذ عن الأخلاق الفاضلة التى يحرصون عليها . اتخذوا موقفهم لإرجاعه إلى بلده ولو كان كارهاً . خوفاً أن يضيع

منهم فرد ـ مجتمعهم فى حاجة إليه ـ وخوفاً أن تتشوه الصورة الجميلة التى يحافظون عليها لشعبهم، فإذا التحق أحدهم بعمل سواء أكان عملا فى محل بأجر أو افتتح لنفسه محلا جديداً فإنه يكون قد دخل تحت نظامهم العام، ونظامهم العام لا يتيح للفرد فرصة لارتكاب المخالفات أو حتى للتفكير فيها، وذلك أنهم يعيشون فى مجموعات صغيرة لكل مجموعة فى متجر أو مصنع بيتاً يسكنون فيه أو فى بيت ملحق به تحت رعاية رئيس المحل بمثل نظام الأسرة التى لا توجد بها الأم أو الزوجة وعلى بقية الأفراد أن يقوموا بأعمالها فى إدارة البيت، فرئيس المحل يمثل الأب فى سلطته وفى حنانه، وشركاؤه يمثلون إخوة كبار له، أما العمال فهم بمثابة الأبناء. ويتعاون المجتمع على إنجاز مهمات البيت حسب تنظيم دقيق يرسمه رب العمل. ولكل محل أو خلية نظام ثابت روتينى ينتظم به سير العمل ويُقسم فيه الوقت تنظيماً دقيقاً: أوقات محددة للصلاة، أوقات محددة للأكل، أوقات محددة للنوم، أوقات محددة للتنظيف، أوقات محددة لترتيب البضاعة ووضعها فى أماكن العرض، أو تحت تناول الأيدى للاستعمال، أوقات محددة للتعامل مع الجمهور. هذه السلسلة من التنظيمات الموضوعة بترتيب محكم سليم بعضها إلى بعض لا يجد معها الفرد فراغاً لارتكاب المعصية أو حتى للتفكير فيها.

وفى نهاية هذا البحث يمكننا أن نلخص ما سميناه بالعلاج الوقائى فيما يأتى:

١ ـ إيجاد بيئة اجتماعية لكل مغترب لا تختلف عن البيئة التى نشأ فيها، مع ملاحظة تكوين علاقة متينة بين مجموعة متعاونة تشبه إلى حد كبير العلاقات الأسرية.

٢ ـ دقة التنظيم فى استغلال الوقت بحيث يشتمل على العناصر التى يحتاج إليها الإنسان فى صرف الطاقة من جهة وفى راحة النفس والجسم من جهة أخرى فى الحدود التى تجمع بين مراعاة الفطرة ومراعاة الشريعة .

٣ ـ ربط الحياة بجانبيها الدينى والمدنى، أو التوفيق بين المادة والروح دون إخلال بمتطلبات أحدهما .

٤ ـ تغليب فكرة بناء الأعمال على التعاون مهما كانت بسيطة . وإيجاب إنجاز المشاريع الضخمة على الجهود المشتركة من الجميع .

٥ ـ إشعار العمال بكرامتهم وآدميتهم وذلك بتقرير حقوقهم وأجرتهم من لجنة عليا يخضع لها العمال وأرباب العمل وتولى تلك اللجنة لمحاسبة الجميع مع شىء من الشدة ودقة المحاسبة على أداء الأعمال فى إجادة وأمانة .

٦ ـ الاهتمام بالجانب العاطفى بتقرير إجازة يُسمح فيها للعامل ولرب العمل بالرجوع إلى وطنه وبقائه فيه مدة معقولة .

٧ ـ تدريب الأطفال على التجارة والاغتراب منذ الصغر لربطهم بعجلة العمل والاعتماد على النفس فى الحياة .

٨ ـ إيجاد العمل المناسب الذى يحفظ على الإنسان كرامته .

٩ ـ منع الاستغلال بتقرير الأجرة من هيئة أعلى فلا يستطيع رب العمل أن يستغل العامل ولا العكس .

١٠ ـ عدم السماح بوجود جماعات من الناس لا عمل لهم فى أى مدينة حتى لا تتكون مجموعات من المتسولين أو من المنحرفين وذلك بإرجاع

كل من ليس مؤهلا للعمل فى النطاق المحدود، وكل من يريد أن ينطلق بدون قيود — إلى أوطانهم ولو بالإكراه .

١١ — إغلاق أبواب الفساد بعدم إتاحة فرصة لذلك .

١٢ — إعداد أماكن فسيحة للصلاة والاجتماعات وسماع الدروس والمواعظ ومناقشة المشاكل العامة أو الخاصة .

١٣ — إيجاد مدارس فى أغلب المدن لمن لا يزال فى سن الدراسة تُدرس له فيه نفس المناهج التى تُدرس فى وطنه وهى مع ذلك تفتح صدرها للكبار الذين يريدون أن يزيدوا فى ثقافتهم فهى تجمع بين أنظمة المدارس العادية والمدارس المسائية ومدارس تعليم الكبار .

١٤ — الابتعاد عن الأعمال والمهن المسفرة والمرهقة والمفرقة .

١٥ — استمرارية التوجيه بالنصائح والدروس فى الميدانين العملى والعلمى .

١٦ — الشعور بالرقابة والمتابعة فى جميع الأحوال .

١٧ — الحرص على حياة الضمير وحياة العقيدة ومراقبة الله فى السر والعلن، وغرس الخوف من الله فى كل تقصير وفى كل معصية .

١٨ — الحرص الشديد على المحافظة على الأمانة بحيث كانت أبرز الأخلاق التى يتحلى بها الفرد عندهم، وقد يُفرط فى كل شىء ما عدا الأمانة، وقد عرفت فيهم هذا جميع المجتمعات التى عرفتهم وتعاملت معهم .

هذه بعض التنظيمات التى اتخذت للحيلولة دون الأضرار أو المساوىء التى تحدث بسبب الغربة، وهى كما ترى كلها أدوية وقائية مبنية على دراسة للنفس البشرية وإن كان الذين فكروا فيها ووضعوها تدريجياً — وغالباً

لمعالجة مشاكل ـ لم يكونوا من حملة الشهادات ولا من علماء النفس المعروفين. وإنما كانوا يتقون شرور الحياة على وطنهم ومجتمعهم بحذر الفطرة وحرص الدين على السلامة .

أما التنظيمات التى جُعلت لعلاج المشكلة بعد وقوعها، ونعنى بالمشكلة فى هذا الصدد الانحراف فى الخلق والاستهانة بأحكام الدين ، أو التفريط فى الجانب من العمل مما تختل به الثقة والأمانة ـ فتتلخص فى المواقف الآتية :

١ ـ ترحيل كل من لا يصلح للعمل فى الغربة أو من يرتكب ما يخالف النظام العام الذى يحرصون عليه مع الإصرار وعدم التوبة والندم .

٢ ـ إجراءات تأديبية مخففة يقوم بها رئيس المحل بمحضر من العمال .

٣ ـ إجراءات تأديبية مشددة تقوم بها هيئة (كبار الحرفة) إما فى جلسة خاصة أو فى اجتماع عام حسب نوع الجريمة وموقف المنحرف من الموضوع .

٤ ـ إعلان البراءة من المنحرف المصر يصدر من مجلس العزابة فى قريته.

٥ ـ يضاف إلى هذا بعض المواقف التى تتخذها الزوجة فى بعض هذه المقامات . وسوف نشير إلى ذلك بتفصيل فى الفصل التالى .

المرأة الميزابية والغربة

انطلق بنو مصعب خارج بلادهم سعياً وراء التحسين الاقتصادى، ولكنهم كانوا يتخوّفون من آثار هذا الانطلاق خارج البلاد، فكانوا يفكرون فى وضع حلول للمشاكل الناجمة عن ذلك أو التى يتوقعون أنها سوف تنجم، وقد عرضنا بعض ذلك فى الفصل السابق. وهناك جانب آخر على غاية من الأهمية كان المفكرون المصلحون يخشونه أكثر مما يخشونه جميع المشاكل الأخرى. وذلك أنهم كانوا يتساءلون عما يضمن لهم رجوع الميزابى الذى خرج من وطنه إلى ذلك الوطن نفسه، ويضمن ارتباطه به، إذا ساغت له الحياة فى مهجره وطابت له فيه المعيشة ـ وهم حين نجحوا فى إرجاع المغترب الفاشل والمنحرف بالتعاون مع السلطة يعرفون بالتأكيد أن هذا الأسلوب لا يُجدى مع الجميع.

فالتاجر الناجح الذى ازدهرت أعماله، وازدادت مكاسبه، وتوسعت تجارته، واستطاع أن يحصل على أملاك وعقارات فى كبريات المدن، ليس من صالحهم ولا من صالحه، ولا من صالح المجتمع، ولا من صالح الدولة أن يُقطع عن أعماله، ويُلزم بالقبوع فى وادى ميزاب مكتوف اليدين، بينما كانت يداه ـ فى ديار الغربة ـ تغزلان الحرير وتصوغان الذهب. فما الذى يضمن رجوع هذا التاجر إلى منطقة صحراوية، ويحول دون أن يعيش فى رفاهية ورغد فى وطنه الجديد. إنه لو تُرك وشأنه يتصرف فى حياته كما يريد لأمكن أن يتسرب بأهله. وهكذا يتسرب سكان الوادى إلى الخارج دون إحساس بالتسرب ولا بالخطر الذى يتهدد وطنهم الأصلى. ولا يلبث ذلك

الوطن إلا فترة قصيرة حتى يصبح خراباً ينعق فيه البوم كما وقع لكثير من بلدان الجنوب التى تسرب منها أهلها طلباً لسهولة العيش ورغده . فما هو القيد الذى يستطيعون أن يضعوه فى رجل كل مغترب حتى يرتبط بوطنه ارتباطاً لا ينقطع . لقد فكروا فى هذا كثيراً حتى اهتدوا إلى ذلك القيد فصاغوه من أشرطة العاطفة الناعمة وأوثقوه إلى قاعدة من الحب المكين . مما جعل الميزابى وهو يغادر بلده لا يكف عن الالتفات إليه لأنه مرتبط فيه بنياط قلبه ، وموثق إليه بجميع مشاعره وأحاسيسه مما يجعله لا يفكر إلا فيه ، ولا ينفق إلا عليه حتى يجعله جنة مزدهرة ، وارفة الظلال ، جنية الثمار ، جميلة المظهر والمخبر .

ورأوا أنه لا يربط الرجل شىء ما فى مكان ما غير المرأة فهى وحدها القادرة على إمساكه وعلى جلبه . وبناء على هذه النظرية فقد تولى مجلس العزابة إصدار قرار ينص على أنه لا يجوز للمرأة الميزابية أن تخرج من وطنها لغير الحج والعلاج ، وكانت فلسفتهم فى اتخاذ هذا القرار مبنية على عدة اعتبارات لها قيمتها فى بناء المجتمعات منها ما يلى :

* المرأة ربة البيت ، وهى مُرتكز الأسرة ، وعليها تتجمع ، وبقاؤها فى الوطن يحفظ للوطن كل مطالبه من الأسرة وفى مقدمتها الجوانب الاقتصادية .

* بقاء المرأة فى الوطن يجعل رب الأسرة مرتبطاً ـ عاطفياً ـ بوطنه فهو يعمل بكل وسيلة للرجوع إليه متى سنحت الفرصة ، كما أنه ينفق عليه وفيه بسخاء لتوفير وسائل الراحة له ولأسرته . بما فى ذلك الاستغلال الزراعى لما يملكه .

* بقاء المرأة في الوطن يجعل أبناء الأسرة ينشأون على المثاليات المعروفة عندهم ويحافظون على السلوك الذى اعتاده المجتمع هناك وهو سلوك أقرب إلى الفطرة وألصق بالدين وأقوم منهجاً من سلوك مجتمعات المدن لا سيما تلك التى اقتبست حضارتها من الغرب .

* السماح للرجل باصطحاب زوجته وأطفاله إلى مقر عمله التجارى قد يكون سبباً لأن تروق لهم الحياة هناك فيقل شوقهم إلى الوطن ويتطور ذلك إلى استحباب البقاء هناك فيكون لوناً من ألوان الهجرة وهو ما يخشونه .

* السماح للمرأة بالانتقال مع زوجها إلى أماكن عمله يتيح لها أن تتصل ببيئات أخرى وبطبيعة الجوار والمعاشرة وطول الحياة تقتبس أنواعاً من السلوك وأخلاقاً وعادات مخالفة لما اعتادته فى وطنها وتدريجياً تألف تلك الأخلاق والعادات فإذا رجعت ـ فى زيارة ـ إلى وطنها كان سلوكها الجديد مثاراً للنقد فتتضايق من ذلك وتحمل زوجها على الإسراع فى العودة إلى مكان الغربة وتكون هذه الحالات بداءات للهجرة الكاملة .

تنقّل المرأة والأطفال فى حياتهم بين بيئة وأخرى يجعلهم يعيشون بين أنماط مختلفة من السلوك . فتؤثر تلك الازدواجية السلوكية على أخلاقهم وعلى سلوكهم .

* وجود الأسرة مع الرجل فى بلاد الغربة يقلل من اهتمامه بالوطن وبالتالى يقلل من الخدمات والنفقات التى يقدمها له لو لم تكن معه أسرته .

* عندما يجد الرجل ـ وهو فى الغربة زوجته وأطفاله إلى جانبه يغلب عليه حب الاستقرار هناك . ويضعف حنينه إلى وطنه الأصيل وتقل رعايته

له . ولذلك فنظراً للاعتبارات السابقة ولغيرها، وربطاً للرجل بوطنه وحفاظاً على هذا الوطن ، وحرصاً على دينهم وأخلاقهم وعاداتهم ، ومحافظة على مجتمعهم بما له من مميزات وخصائص ، اتخذوا هذا القرار . وهم يعلمون الجوانب السلبية فيه وما ينتج عنها من مشاكل لخصها أحد الشباب الذين تحدثت معهم فى هذا الموضوع فى أضرار ينتج عنها نوعان من الأمراض وخسارة اقتصادية . وفى الإمكان عرضها فى إيجاز كما يلى :

١ — أمراض نفسية : أو كما عبر هو عنها : اختلال فى الصحة النفسية وهى ناتجة عن نوعين من الحرمان :

حرمان العاطفة من الإشباع بالمحبة الأسرية .

حرمان الغريزة من الإشباع الجنسى .

وحرمان كل منهما من الإشباع يؤدى إما إلى عقد الكبت ، وإما إلى انطلاقة الانحراف .

والانحراف فى الحرمان العاطفى ينتج عنه برود فى العلاقات الأسرية ، وتفكك فى رابطتها وعدم انسجام فى سلوكها ، ثم تحول عاطفة الحب فى النفس إلى كراهية وحقد على المجتمع أجمع ، ثم طغيان الفردية على الشخصية حتى تذوب منها جميع الاعتبارات إلا ما فرضته القوة . والانحراف فى الحرمان الغريزى ينتج عنه البحث عن إشباع الغريزة بطرق غير مشروعة كالشذوذ بأنواعه والبحث عن البغاء السرى أو العلنى .

٢ — أمراض اجتماعية : وهى ناتجة عن نوعين من الحرمان أيضاً .
حرمان الأسرة من الإشراف الدائم على أفرادها ، والسكن معهم ، والحياة

بينهم ، وحرمان المجتمع الأسرى أو ذوى الرحم والقرابة من رعاية حقوقها ومداومة الاتصال بها ، وإحكام المودة بينها ، وينتج من الحرمان الأول نوع من التشرد والاستقلالية الجبرية التى أحدثتها الظروف ، ولم تكونها التربية الواعية.

وينتج عن الحرمان الثانى نوع من التفكك والتباعد بين الأقارب وضياع كثير من الحقوق دون شعور من أحد ، أو مسئولية عليها .

٣ — خسارة اقتصادية : وذلك أن الرجل وهو يكافح فى بلاد الغربة يضطر إلى الإنفاق على نفسه هناك وعلى الأسرة فى الوطن فهو من الناحية الاقتصادية كأنما ينفق على أسرتين ، يضاف إلى ذلك أن المرأة غالباً لا تحسن التصرف المالى فى غير اللباس والزينة فيتسرب كثير مما يرسله الزوج إلى أسرته — لكى تعيش حياة سعيدة — من بين أنامل الزوجة إلى هذا الجانب ويبقى أفراد الأسرة فى حرمان من بعض ما يريدون وهم فى ذلك ينسبون التقصير والمسئولية إلى رب الأسرة الموجود فى ديار الغربة .

والآن نستطيع أن نجمل الأضرار التى يخافها البعض ويحذر منها فيما يلى:

* الحرمان من إشباع العاطفة ينتج عنه برود العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة .

* الحرمان من إشباع الغريزة ينتج عنه التماس ذلك بالوسائل المحرمة .

* عدم الإشراف إشرافاً مباشراً على الأفراد فى الأسرة ينشأ عنه تشرد أولئك الأفراد وعدم انضباطهم .

* الغياب عن المجتمع ينشأ عنه التفكك فى العلاقات والخلاف بين ذوى الأرحام .

* بقاء الأسرة بعيدة عن ربها والإنفاق عليها يتسبب فى مزيد من الإسراف دون تغطية المطالب لأفراد الأسرة .

حدثنى بهذه المخاوف بعض الشباب الميزابى المثقف بثقافة هذا العصر والذى درس الآراء والنظريات الجديدة فى علم النفس وعلم الاجتماع وكنا فى اجتماعات خاصة نتحدث عن المرأة الميزابية ومزاياها ونقارن المضار والمنافع الناتجة عن هجرة المرأة الميزابية مع زوجها، فحاولت أن ألخص ما يراه بعض الشباب فى هذه الفقرات بإيجاز شديد حتى يعرف القارىء الكريم كل جوانب الموضوع .

أنا ـ فى الحقيقة ـ لا أعرف أول من اتخذ هذا القرار ، ولا كيف اتخذه ، ولا لماذا اتخذه . والقرار بالنظرة السطحية لا يتسجم مع الفطرة وهو تحكم فى شأن خاص من شئون الأسرة لم تقيده الشريعة السمحة إلا على ضرب من التأويل يمكن أن يستند إليه إذا رجحته المصلحة العامة .

وأنا أعتقد ـ دون أن تكون لى شواهد ـ أن أهل الوادى لم يصدروا هذا القرار إلا لأن وقائع معينة ، أو أحداثاً بارزة دفعتهم إليه . وكانت السبب فى وضع هذه المادة القاسية كما يرى بعض الإخوان . وقد تقبلها سكان هذه المنطقة واعتادوها وأصبحت عندهم عادة لا تبعث على التساؤل والنقاش ، كما أن مجلس العزابة ـ ولا بد أن يكون ناقشها من الوجهة الشرعية مناقشة مستفيضة ـ كان يقف فيها موقفاً صارماً لا يسمح لأى إنسان مهما كان مركزه أن يأخذ معه امرأة خارج وادى ميزاب لغير الحج والعلاج . وإلا لكان معرضاً للحكم بالبراءة عليه ، وكانت المرأة أيضاً معرضة لمثل ذلك من مجلس العزابة النسوى . وإذا أجاز رجل لنفسه أن

يقف هذا الموقف فيقتبل الحكم بالبراءة . فإنه لاتوجد امرأة واحدة تضع نفسها فى هذا المأزق الحرج وتعرض نفسها لغضب الله وغضب المجتمع وهجرانه .

وقد انبنى على قرار منع المرأة من الخروج من ميزاب تصرف آخر قصد منه الحد من الأضرار التى قد تلحق بالمرأة بسبب غربة الزوج ومايتعرض له من إغراءات الانحراف ، وتتعرض هى له من ألوان الحرمان فأعطى لها حق اشتراط عدد من الشروط فى العقد عند الزواج تكفل لها حق إبعاد الضرر عنها وعن بيتها إذا توقعته أو أحست به ، وقد أصبحت تلك الشروط عرفاً عاماً عند بنى مصعب لا يُسأل الرجل عند العقد عن قبولها أو عدم قبولها كأنما ليس له حق الرفض . أما الشروط فتتلخص فيما يلى[1] :

١ ـ أن لا يغيب عنها أكثر من ثلاث سنوات .

٢ ـ أن لا يتزوج عليها .

٣ ـ أن لا يشرب الخمر .

٤ ـ أن لا يرتكب جريمة الزنى .

٥ ـ أن لا يلعب القمار .

٦ ـ أن لا يرتكب جريمة قتل النفس التى حرم الله .

ويضيفون إلى هذه الشروط فقرة شارحة تقول : فإذا ارتكب إحدى هذه المخالفات صار طلاقها بيدها ولا يضرها الانتظار .

---

(١) خصصوا الكبائر المذكورة هنا دون غيرها لأن لهذه الكبائر آثار سيئة مباشرة على المرأة والأسرة .

ويقصدون بذلك أن الرجل إذا ارتكب مخالفة أحد هذه الشروط فإن من حق المرأة أن تطلق نفسها إذا شاءت، فإذا لم تبادر إلى تطليقها فإن عدم المبادرة لا يفقدها حقها فى التخلص منه، وهذه الملاحظة الأخيرة البسيطة التى حفظت للمرأة حقها فى الطلاق إذا خولف الشرط من شأنها أن تجعل المرأة غير متسرعة خوفاً أن يضيع منها الحق فتتخذ قرار الانفصال بمجرد الهفوة الأولى ، وإنما تتريث وتتصبر مادامت تأمل الصلاح من زوجها ، وترجو منه التوبة عن انحرافاته . فإذا يئست منه وتحققت المضرة لها فى نفسها أو فى بيتها لجأت إلى القرار واستعملت الحق . وأعلنت الحكم بالفراق بقولها: أخذت بشرطى وطلقت نفسى . فإذا أردنا ـ الآن ـ أن نعود إلى الموضوع فنجمل ما فيه من سلبيات وإيجابيات فإننا نستطيع أن نلخصه كما يلى :

الاغتراب عن وادى ميزاب ـ للاكتساب ـ ضرورة اقتصادية مسلم بها وغير خاضعة للنقاش ، ولتجنب ما ينتج عنها من أضرار اتخذ عدد من التنظيمات تكفل الضمانات الآتية :

١ ـ قصرت أعمال بنى مصعب على التجارة (إلا شواذ لا حساب لها) وقد روعى فى تلك التجارة أن تكون على أسلوب المشاركة ـ غالباً ـ ولوحظ على القائمين بها الاستكثار من العيال ، حتى يتمكن أصحاب رؤوس الأموال المشاركون فى التجارة من الإشراف على تجارتهم على طريقة المناوبة ، فيستطيع بعضهم أن يقيم فى بلده وشريكه يشرف على التجارة ، ثم يحدث العكس . وحتى يستطيع كل عامل أن يعود إلى بلده فى فترات محدودة ويقوم بعمله بديل من زملائه .

٢ ـ وضعت أمام المغترب نفس البيئة التى كان يعيش عليها فى جميع

نظم الحياة . فى أسلوب العمل . فى تنظيم الإشراف والمتابعة ، فى المحافظة على الصلاة ، فى حضور الصلاة فى المساجد أو الأماكن المعدة لذلك ، فى موالاة الإرشاد والوعظ ، فى إعداد وسائل الطهارة ، فى جمع الصدقات وتوزيعها ، بل حتى أنواع الأكل وطريقة إعداده وتقديمه . بحيث أن الواحد منهم فى ديار الغربة لا يفتقد شيئاً اللهم إلا بعض الوجوه أو بعض المناظر أو الشئون الشخصية جداً ، فهو يعيش فى مجتمع هو نفس المجتمع الذى نشأ فيه بكل ألوانه وظلاله ، وهو بذلك لا يحس أبداً أنه فى غربة ، ولا يجد أبداً ما يجده المغترب — عادة — من الوحشة — وفى هذه العادة التى تنقل البيئة نفسها إلى مكان العمل من الاستقرار النفسى والاطمئنان الروحى ما يساعد على الاستمرار فى العمل والأجادة فيه .

٣ — نظمت أوقات العمل والراحة والعبادة بحيث لا تترك فراغاً يدعو إلى الإحساس بالغربة أو الافتقار إلى قتل الوقت (لأنه لم يبق لهم وقت زائد أو فارغ يستحق القتل) .

٤ — عدم وجود فراغ فى الوقت مع شدة المراقبة والمتابعة من ثلاث جهات متعاونة هى مجلس الغرابة ، وجماعة الحرفة ، وشروط عقد الزواج . لكل منها حق فرض عقوبة مناسبة ، كان عاملا هاماً فى عدم التفكير فى الانحراف بجميع أنواعه وعدم التفكير فى شىء يجعل الشخص لا يشعر بالحرمان منه .

٥ — التهديد بفقدان الزوجة ، وتشريد الأطفال إن هو فكر فى إحدى الموبقات السابقة ، أو فكر فى إطالة الغربة أكثر مما حدده القرار ، أو اتخذ

حلا مؤقتاً بزواج ثان جعله لا يقدم على أى خطوة من تلك الخطوات لئلا يتهدم مستقبله كله . ونستطيع الآن أن نقول :

* إن المغترب لا يحس بالفراغ العاطفى طالما هو موجود فى مجتمع وبيئة شبيهة بالبيئة التى كان يعيش فيها . وطالما فى إمكانه أن يرجع إلى بلده فى مناسبات معقولة ، فلا يخشى عليه من العقد ، ولا يخشى منه ولا عليه برود العلاقات الأسرية .

* ولا يخشى عليه من سيطرة الغريزة ، لأن وقته مملوء بعمل منتج ، ولأنه لا يجد فرصة للتسكع فيرى ما يثير فيه نوازع الغريزة ، ولأنه يعرف سلفاً أنه لا يستطيع أن يشبع غريزته بطريقة غير مشروعة فهو لا يفكر فى الانحراف بتاتاً وإنما يحصر تفكيره فى الجانب المشروع ، وذلك إذا دعاه داعى الفطرة الذى حدد تقريباً بالأوقات التى يسمح فيها بالرجوع إلى البلد . وأحب هنا أن يدرك القارىء الكريم ذلك الفرق الكبير بين داعى الفطرة وداعى الغريزة . فدواعى الفطرة وسيلة للقيام بوظيفة حيوية يتوقف عليها استمرار الخليقة . أما دواعى الغريزة فوسيلة للاستجابة والخضوع لسلطان شهوة غالبة أثارها إحساس أو نظر أو لمس . وقد يكون المثير مشروعاً عندما يكون مع من تربطهما علاقة شرعية ، وقد يكون غير شرعى عندما يكون عند من لا تربطهما علاقة شرعية . ولعل الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى تختلط عنده مطالب الغريزة بمطالب الفطرة ، وهو مطالب — باعتباره عاقلا مكلفاً — بالتفريق بينهما ووضع كل واحدة منهما فى مكانها الصحيح أما غيره من المخلوقات فتوجهها الفطرة توجيهاً سليما ولذلك فأنت ترى القطيع من الحيوان بذكوره وإناثه يعيش سنة كاملة معاً لا يرتكب الخطأ الذى يرتكبه

الإنسان ، فإذا جاء الموسم الذى تدعوه فيه الفطرة للقيام بمهمة استمرار الحياة استجاب لها بذكوره وإناثه حتى إذا تمت عملية الإخصاب بجميع الحوامل هدأت الحركة وتوقفت العملية إلى موسم مقبل . فعملية اللقاء والإغراء فى غير الإنسان لا تستثير الغريزة ولا تدفع الشهوة إلى الغلبة والسيطرة إلا فى الأحوال والأفراد الشاذين ، والشاذ لا حكم له . أما اللقاء والإثارة والإغراء فى الإنسان فهى شديدة الخطورة ولا تتحكم فيها الفطرة وإنما تتحكم فيها الغريزة ، والغريزة مطية الشهوة ، ولذلك كان من تشريع الله للإنسان إبعاد المثيرات عنه بالفصل بين حركة الرجل والمرأة وجعله لكل منهما مداراً فى الحياة يدور فيه ولا يتم اللقاء بينهما إلا بترتيب وتنظيم .

وهذا ما أدركه المفكرون من بنى مصعب ، فكانوا لا يخشون على المغترب منهم من الانحراف لأن ضمانات عديدة نفسية وعقلية ودينية وعملية تحول دون ذلك . ولا يخشى عليه من العقد لأن العقد لا تنتج إلا من الإحساس بالحرمان المبنى على القهر مع التفكير الدائم فى إمكان الحصول على المرغوب لولا وسائل القسلط ، أما النفس التى لا تحصل على مرغوب مشتهى من دواعى الغريزة لأنها مقتنعة — داخلياً — بأن ذلك ليس من حقها فلا تتعقد أبداً ، فإذا كان المغترب ممن تكون عنده دواعى الفطرة بطيئة ، وتغلبت عليه ظروف جمع المال فى ديار الغربة . وأحب أن يستمر فيها بعد أن بلغ الحد الأقصى للمدة المقررة أو المسموح بها ، فإنه يكون معرضة لأن تنفصل عنه زوجته وتتشرد أسرته فيبادر إلى الرجوع إلى وطنه ولو لم يكن شديد الرغبة فى ذلك ، وذلك لأن واضعى التنظيم راعوا ظروف المرأة ، فإن للمرأة فى باب الفطرة حقاً مثل حق الرجل ، وقد مكنت من الحصول على هذا الحق بالقوة إذا لم تغن العاطفة .

* موضوع تربية الأسرة والإشراف عليها وافتقاد منزلة الأب المغترب في ذلك موضوع هام في الحقيقة، غير أن بني مصعب وهم يرون أن الاغتراب ضرورة اقتصادية تحتمها مصلحة الوطن والمجتمع والفرد ـ قد اتخذوا عدداً من الترتيبات والتنظيمات التي تخفف ـ إلى أقصى حد ـ مساوىء اغتراب رب الأسرة عن الأسرة . وذلك أنه بالإضافة إلى من يتركهم المغترب من كبار الأسرة ليشرفوا على كل الجوانب من أسرهم ، فإن مجلس العشيرة يعتبر المشرف الحقيقي على جميع أسر العشيرة ، وهو الذي يتولى رعاية شئون كل أسرة بالتفصيل وبالتدقيق حتى مع وجود رب الأسرة ومع ذلك فإن القرية في وادي ميزاب تعتبر أسرة واحدة يتولى الإشراف عليها من جميع جوانبها مجلس العزابة يساعده على مشاكل دخائل البيوت والمجتمع النسوي (مجلس العزابة النسوي) وعين هذا المجلس الساهرة على مصلحة المجتمع تدخل كل بيت . وتتبع كل أسرة وتعرف المشاكل . وتوجه كل طفل لما ينبغي له وتتيح لجميع أبناء القرية فرصاً متساوية من التعليم والتهذيب والرعاية والتعويد على المحافظة على العبادات لا سيما أداء الصلاة في المساجد، والحصول على أنصبتهم من الأوقاف التي توزع كل يوم أو في المناسبات . وتعويدهم على المحافظة على مكارم الأخلاق . ويساعد مجلس العزابة والعشيرة (مجلس المكاريس) الذي يحافظ على النظام والآداب العامة في القرية ويتولى حراسة القرية حراسة دقيقة في كل ما يعكر جو الأمن أو الدين أو الخلق ، سواء كان ذلك المعكر وافداً من الخارج ـ وهو أكثر الحالات ـ أو كان نابعاً من داخل القرية وهو نادر جداً .

وبهذا فإن الأسرة لا تفقد بغياب الأب أو الأخ شيئاً غير شخصه الذي يجعل غيابه عنهم محبته تزداد في قلوبهم ، وتعلقهم به يتضاعف يتضاعف

شوقهم إليه ، ويجعله هو فى نفس الموقف أيضاً ، لأنه مطمئن على استقامة أمورهم جميعاً لوجود من يتولاها فى أمانة وإخلاص ، ولا يحن إلى رؤيتهم إلا من باب الشوق والمحبة .

والواقع أن هـذا الوضع يقوى الترابط الأسرى ويبعد عنه ما تثيره التصرفات المباشرة ، وتعارض الرغبات من آثار فى النفوس .

وبفضل هذه التنظيمات وأمثالها لم يعرف التشرد فى المجتمع الإباضى فى أى دور من أدوار التاريخ حتى فى أشدها قسوة عليهم رغم ما انصبت عليهم من النكبات فى أى بلد من بلدان الإباضية . وكان هذا يمثل ظاهرة غريبة فى الدراسات الاجتماعية لبعض المهتمين بهذا الموضوع ، فقد كان بعضهم يلاحظ ـ مع الاهتمام والاستقصاء والحرص ـ أنه لا يوجد أى شحاذ أو متسول أو متشرد إباضى ، بينما يوجد من غيرهم أعداد وافرة .

وقد أشار الأستاذ توفيق المدنى ببراعة إلى هذه الظاهرة عندما تكلم عن إباضية وارجلان ، أما الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فقد لاحظ هذه الظاهرة بعمق فى أباضية جربة وتحدث عنها بشىء من الإسهاب وحاول أن يعللها ويبحث عن أسبابها فوفق فى بعض التعليقات وفاته التوفيق فى بعضها . وحسبه أنه أدرك ما لم يشعر به أو تغافل عنه غيره وكتب عنه بصدق وصراحة . وحاول أن يفهم أسبابه .

* ولا خوف أبداً من التفكك الأسرى المنبنى على طول الغياب الذى يسبب ضعف العلاقات مع الأقارب والتقصير فى أداء حقوقهم ، فإن هذه الفكرة غير واردة أساساً ، لأن حقوق الأقارب وزياراتهم ليست واجباً يومياً ، وإنما هى مرتبطة غالباً بالمناسبات والمواسم ، وتتفاوت هذه الحقوق

بتفاوت درجات القرابة . ولاشك أن الغياب فترة من الزمن يجىء بعدها القريب مشتاقاً إليه ـ وربما كان محملا بالهدايا ـ كفيل بنسف كل المخاوف فى هذا الباب . ولعل غياب بعضهم عن بعض فترات معقولة من الزمان أدعى لأن لاتثور بينهم المشاكل بسبب احتكاك المعاشرة وأن يتغلب على صغائر الأمور فتغلب المحبة عليهم وتزداد أواصرهم توثقاً ومتانة .

* أما نقطة الخسارة الاقتصادية فلعلها ليست من الأهمية بحيث تستدعى الدراسة والبحث ، والأموال التى تصرف على الأسرة وعلى الوطن ليست خسارة وإن كان فيها بعض المبالغة ، والمرأة التى تتولى إدارة البيت فى غياب زوجها تتعود على حسن الإدارة وربما تجيد إدارة الجانب المالى فيه أكثر من إدارة الزوج له .

خاتمة الفصل :

بقى لى فى نهاية هذا الفصل أن أقول : إن هذه الأنواع من التنظيمات والإجراءات أو الأعراف ليست وليدة يوم . ولا منبثقة عن تفكير فلسفى فى برج عاجى ، أو نبعت بين أناس من ذوى الكراسى الدوارة والمكاتب العريضة ، الذين يتصورون مشاكل المجتمع بآذانهم ويتخذون لها الحلول بأخيلتهم ، وإنما هى نبعت من تجارب غنية متواصلة ، وملاحظات مستمرة متتابعة ومناقشات فى اختيار أنسب الحلول وأسلمها ، وقد تدوم تلك الملاحظات والمناقشات شهوراً وأعواماً حتى تبلغ إلى الصيغ النهائية التى نفذت كأعراف أو تقاليد . أو كأنظمة وقوانين .

فما هى الآثار التى نتجت عن مجموع تلك القرارات والتنظيمات والأعراف والتقاليد ؟

وللإجابة عن هذا السؤال أستطيع أن ألخص أهم تلك الآثار فى النقاط التالية :

١ — اعتمدوا فى بناء وطنهم على أنفسهم ، واعتبروا غربتهم تضحية فى سبيل الوطن يرجون عليها الثواب من الله . وجعلوها وسيلة لخدمته ، ولذلك فهم ينفقون بسخاء على تعميره مما جعله يمتاز على غيره من الواحات بالعمران والازدهار ووسائل الحضارة ويسر المرافق . وقد جعلهم حبهم لهذا الوطن واغترابهم من أجله يتصرفون خلاف ما هو متعارف عليه فى العالم أجمع .. وذلك أن أكثر الناس إذا أرادوا التخفف من المسئوليات وقضاء وقت فى الراحة والاستجمام . يأخذون مبالغ من المال وينطلقون بها خارج بلادهم ، ينفقونها هناك فى حرية ودون مسئولية أما بنو مصعب فإنهم إذا أرادوا التخفف من مسئولياتهم وقضـــاء وقت فى الراحة والاستجمام فإنهم يأخذون ما معهم من مال فى دار غربتهم ثم ينطلقون من بلدان عملهم إلى بلدان وطنهم الأصلى حيث يقضون فترة من الراحة والاستجمام بين أفراد أسرهم وفى ربوع وطنهم وتعود نفقاتهم على بلادهم وشعبهم بالخير والرغد والازدهار .

٢ — ارتبطوا مصيرياً بوطنهم الأصلى فهم مشغولون — على كل النطاقات — بالتفكير فيه ، والعمل له ، والكفاح من أجله وقد كلفهم ذلك أثماناً باهظة . قديماً فى رد عدوان هجمات النهب والسرقة والقتل ، وحديثاً فى كفاحهم للاستعمار الفرنسى ورفضهم للخضوع له ، ولفروضه التى كان يفرضها على الشعوب الداخلة تحت سيطرته كالتجنيد الإجبارى .

٣ — عند اغتراب الرجل بقيت المرأة هى ركيزة العمل الاجتماعى فقد توفرت لها التربية الدينية ، وارتبطت بالمسجد يومياً تحضر الصلاة ، وتسمع

الدروس ، وكفل لها المجتمع حصانة دائمة لاتتعرض فيها لأى هزة أو إثارة ولم تنفتح لها أبواب الشر والفساد كما انفتحت لغيرها ، وألقيت عليها ، مسئولية الاستقرار فى الوطن والمحافظة على مثاليات الأسرة التى يوجهها الدين ويقرها العرف الحسن. فثبتت فى مكانها كقاعدة تدور حولها شئون الأسرة جميعاً ، ينشأ تحت رعايتها الأطفال ، ويساعدها الأجداد ، ويشترك معها الزوج فى رسم المسيرة عندما يحضر ، أو يتم ذلك بالمراسلة فى المشاكل الطارئة ومنع غير المحارم من لقائها ولو كانوا من أقاربها فاستغنت عنهم واستقلت بإدارة انبيت ورعاية شئونه مما أكسبها قوة فى الشخصية واعتداداً بالنفس وثقة من الزوج والأهل، فكانت العلاقة التى تربطهم جميعاً ـ ولاسيما الزوجين ـ مبنية على المحبة والاحترام المتبادلين .

٤ — اعتاد الميزابيون مشقات السفر والاغتراب وتمرسوا بخدمة أنفسهم دون اللجوء إلى غيرهم ، وعودوا أبناءهم على ذلك من عهود الطفولة فتكونت فيهم صفات رجولية قوية معتمدة على النفس ، وسلموا من عواقب التدليل الذى يورث الوهن ، ومن مظاهر الحب والحنان الذى يتجاوز حدوده فينقلب إلى مرض نفسى . فكانوا إذا طلبوا من طفل فى السابعة أن يرحل إلى بلد بعيد يقيم فيه السنة والسنتين دون أحد من أقاربه استعد لحمل أمتعته وساعدته أمه على ذلك دون أن تقوم مناحة فى البيت بسبب الفراق ودون أن تقبل دستة من المناديل بالدموع فى لحظات الوداع . ودون أن يحس هو بأنه فى حالة حرمان المفطوم أو تحس هى بأنها فى موقف الثكلى .

٥ — كان من أهم آثار تلك التنظيمات عليهم أن ربطتهم بوحدة

متميزة فى السلوك والعادات . وجعلتهم حراصاً على الاستمساك بالدين والاحتفاظ بالاستقامة فى الخلق ، وقويت الرابطة بينهم فى ديار الغربة وفى داخل بلادهم وعودتهم على التفكير الجدى فى المصالح العامة والتعاون عليها حتى أصبح القيام بها والاتفاق عليها والتبرع لمشاريع الخير — كيفما كانت — ملكة فيهم يستجيبون لها بالنداء الداخلى الذى يحسونه فى أنفسهم أكثر مما يستجيبون له بالدعوة إليه وكان من نتائج ذلك أنه ما قام داع يدعو إلى مشروع خيرى لمصلحة الجماعة إلا وجد النفوس مقبلة عليه مقتنعة بوجوب الإنفاق فيه . لأن تلك النفوس ريضت على أعمال الخير واقتنعت بها قبل أن تدعى إليها .

٦ — ربما كانت رابطة الأسرة عندهم — ولا سيما علاقة الزوجين والأبناء — أقوى منها فى أى بلد أو شعب آخر — لأنها عندهم تعتمد على ثلاثة ركائز هى :

المحبة والمصلحة والشوق . بينما لا ترتكز علاقة الأسر عند غيرهم إلا على المحبة والمصلحة فى قليل من الأحيان وعلى المحبة فقط أو المصلحة فقط فى أكثرها .

وقد يكون سبب الارتباط بين الزوجين هو المحبة ثم تنشأ عنه المصلحة، وقد يكون المصلحة ثم تنشأ عنه المحبة .

ومهما كانت فى سائر الشعوب فإنها فى هذا الشعب تزيد قوة وارتباطاً بعامل الشوق الذى تتهذب به العواطف وتسمو به الأحاسيس وترق به المشاعر فيصطبغ السلوك المبنى على كل ذلك بالحنو والحنان والإحسان .

ويبدو لى أن هذه المزايا كلها كانت نتيجة لقرار منع المرأة من الخروج خارج وادى ميزاب ـ فاستقرت فى وطنها وباستقرارها استقر الشعب كله ، وبذلك كان لها الفضل فى حفظ الأسرة ، وحفظ الدين ، وحفظ الأخلاق والعادات ، وحفظ الرجل من الفساد الخلقى وحفظت نفسها من الوقوع بين مغريات الحياة ، وحفظت الوطن مزدهراً عامراً محبوباً مقشوناً إليه باستمرار.

وفضل ازدهاره الذى كان السبب الحقيقى فيه هو تضحية المرأة الكبرى من أجله ولزومها له ، وأصبح اليوم مفخرة للجزائر الحرة ومرتاداً سياحياً من الدرجة الأولى يحرص السواح على زيارته ، وتحرص أجهزة السياحة من الدولة أن تريه لهم وكان قبل ذلك وبعد ذلك جنة من جنات الله فى الأرض لا يحس بنو مصعب بالسعادة والهناء ، والاستقرار والأمن إلا عندما يكونون بين ربوعه بقراه اللامعة وغاباته الخضراء التى تحيط بها كما يحيط هلال العلم بنجمته الزاهرة .

فإذا أراد الإباضية فى الجزائر أن يبقى وطنهم ـ واسطة العقد ـ لواحات الصحراء جميعاً ومفخرة للجزائر كامـــلة . وحصناً لهم محتفظاً بخصائصه ومزاياه ـ فليحافظوا على القرار الذى يمنع المرأة من الخروج من وادى ميزاب ، وإذا أرادوا أن يتساهلوا فيما ورثوه من تنظيم وأعراف فليتساهلوا فيما شاءوا وليغيروا نظام اقتصادهم وحياتهم كما يشاءون وليحتفظوا بثلاثة أشياء فقط هى مجلس العزابة ومجلس العشيرة ، وعدم السماح بخروج المرأة لغير العلاج والحج . وليتأكدوا أنهم إذا تساهلوا فى موضوع العزابة فإن الجانب الدينى قد اضمحل . وأنهم إن تساهلوا فى مجلس العشيرة فإن الجانب الاجتماعى لهم قد اختل . وأنهم إن تساهلوا فى رحيل المرأة عن الوادى فإن الشعب

الميزابى كله قد رحل . ولن يبقى فى ذلك الوادى غير مياه من حين إلى حين تسيل . وجذوع مهترئة كانت فيما سبق جذوع نخيل .

هذا ما تحققناه عن خبرة ، وعرفناه عن تجربة ، وشاهدناه بالعين ، وحضرنا بعض مأساته ـ ولا أبقانا الله حتى نرى نهايتها ـ فليسألوا إن شاءوا تلك الآثار الصامتة ما بين جربه ووارجلان ، وليسألوا إن شاءوا تلك الآثار الناطقة ما بين غدامس وغريان .

ولله عاقبة الأمور فى كل مكان .